حياة النبوة و الرسالة والدعوة

العهد المكي

obeikandl.com

obeikandl.com

النبوة والدعوة

العهد المكي

تنقسم حياة رسول الله ﷺ – بعد أن شرفه الله بالنبوة والرسالة – إلى عهدين، يمتاز أحدهما عن الآخر تمام الامتياز، وهما:

١ – **العهد المكى**، ثلاث عشرة سنة تقريبًا.

٢ – **العهد المدنى**، عشر سنوات كاملة.

ثم يشتمل كل من العهدين على عدة مراحل، لكل مرحلة منها خصائص تمتاز بها عن غيرها، يظهر ذلك جليًّا بعد النظر الدقيق فى الظروف التى مرت بها الدعوة خلال العهدين.

ويمكن تقسيم العهد المكى إلى ثلاث مراحل:

١ – **مرحلة الدعوة السرية**، ثلاث سنوات.

٢ – **مرحلة إعلان الدعوة فى أهل مكة**، من بداية السنة الرابعة من النبوة إلى هجرته ﷺ إلى المدينة.

٣ – **مرحلة الدعوة خارج مكة وفشوها فيهم**، من أواخر السنة العاشرة من النبوة. وقد شملت العهد المدنى وامتدت إلى آخر حياته ﷺ.

أما مراحل العهد المدنى فسيجىء تفصيلها فى موضعه.

فى ظلال النبوة والرسالة

فى غار حراء:

لما تقاربت سنه ﷺ الأربعين، وكانت تأملاته الماضية قد وسعت الشقة العقلية بينه وبين قومه، حبب إليه الخلاء، فكان يأخذ السَّوِيق والماء، ويذهب إلى غار حراء فى جبل النور على مبعدة نحو ميلين من مكة - وهو غار لطيف طوله أربعة أذرع، وعرضه ذراع وثلاثة أرباع ذراع من ذراع الحديد - فيقيم فيه شهر رمضان، ويقضى وقته فى العبادة والتفكير فيما حوله من مشاهد الكون وفيما وراءها من قدرة مبدعة، وهو غير مطمئن لما عليه قومه من عقائد الشرك المهلهلة وتصوراتها الواهية، ولكن ليس بين يديه طريق واضح، ولا منهج محدد، ولا طريق قاصد يطمئن إليه ويرضاه.

وكان اختياره ﷺ لهذه العزلة طرفًا من تدبير الله له، وليكون انقطاعه عن شواغل الأرض وضَجَّة الحياة وهموم الناس الصغيرة التى تشغل الحياة نقطة تحول لاستعداده لما ينتظره من الأمر العظيم، فيستعد لحمل الأمانة الكبرى وتغيير وجه الأرض، وتعديل خط التاريخ... دبر الله له هذه العزلة قبل تكليفه بالرسالة بثلاث سنوات، ينطلق فى هذه العزلة شهرًا من الزمان، مع روح الوجود الطليقة، ويتدبر ما وراء الوجود من غيب مكنون، حتى يحين موعد التعامل مع هذا الغيب عندما يأذن الله[(١)].

جبريل ينزل بالوحي:

ولما تكامل له أربعون سنة - وهى رأس الكمال، وقيل: ولها تبعث الرسل - بدأت طلائع النبوة تلوح وتلمع، فمن ذلك أن حجرًا بمكة كان يسلم عليه، ومنها أنه كان يرى الرؤيا الصادقة؛ فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، حتى مضت على ذلك ستة أشهر - ومدة النبوة ثلاث وعشرون سنة، فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة - فلما كان رمضان من السنة الثالثة من عزلته ﷺ بحراء شاء الله أن يفيض من رحمته على أهل الأرض، فأكرمه بالنبوة، وأنزل إليه جبريل بآيات من القرآن[(٢)].

---

(١) انظر لأصل القصة: صحيح البخارى ح (٣)، وابن هشام ١/ ٢٣٥، ٢٣٦ وغيرهما من كتب التفسير والسنة والسيرة. ويقال: إن عبد المطلب أول من تحنث بحراء، فكان إذا دخل شهر رمضان صعد وأطعم المساكين جميع الشهر. الكامل لابن الأثير ١/ ٥٥٣.

(٢) قال ابن حجر: وحكى البيهقى أن مدة الرؤيا كانت ستة أشهر، وعلى هذا فابتداء النبوة والرؤيا =

وبعد النظر والتأمل فى القرائن والدلائل يمكن لنا أن نحدد ذلك اليوم بأنه كان يوم الاثنين لإحدى وعشرين مضت من شهر رمضان ليلًا، وقد وافق ١٠ أغسطس سنة ٦١٠ م، وكان عمره ﷺ إذ ذاك بالضبط أربعين سنة قمرية، وستة أشهر، و١٢ يومًا، وذلك نحو ٣٩ سنة شمسية وثلاثة أشهر وعشرين يومًا[١].

ولنستمع إلى عائشة الصديقة رضي الله عنها تروى لنا قصة هذه الوقعة التى كانت نقطة بداية النبوة، وأخذت تفتح دياجير ظلمات الكفر والضلال حتى غيرت مجرى الحياة، وعدلت خط التاريخ، قالت عائشة رضي الله عنها:

أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيَتَحَنَّث فيه –

= وقع فى شهر مولده وهو ربيع الأول، بعد إكماله أربعين سنة، وابتداء وحى اليقظة فى رمضان. فتح البارى ١/ ٢٧.

(١) اختلف أهل السير اختلافا كبيرًا فى أول شهر أكرمه الله فيه بالنبوة، وإنزال الوحى، فذهبت طائفة كبيرة إلى أنه شهر ربيع الأول، وذهبت طائفة أخرى إلى أنه رمضان، وقيل: هو شهر رجب، وإنما رجحنا أنه شهر رمضان لقوله تعالى:] h i j k l m n Z [البقرة ١٨٥]، ولقوله تعالى:] ! " # $ % & ' ( ) * + , - . / Z [القدر]، ومعلوم أن ليلة القدر فى رمضان، وهى المرادة بقوله تعالى:] ! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = > ? @ A B C D E F G H I J K L M N O P Q R S T U V W X Y Z [[الدخان]؛ ولأن جواره ﷺ بحراء كان فى رمضان، وكانت وقعة نزول جبريل فيها كما هو معروف.

ثم اختلفت الروايات واختلف القائلون ببدء نزول الوحى فى رمضان فى تحديد ذلك اليوم، فقيل: هو اليوم السابع، وقيل: السابع عشر، وقيل: الثامن عشر، وذهب ابن إسحاق وغيره إلى أنه اليوم السابع عشر. وإنما رجحنا أنه اليوم الحادى والعشرون لأن أهل السير كلهم أو أكثرهم متفقون على أن مبعثه ﷺ كان يوم الاثنين، ويؤيدهم ما رواه أئمة الحديث عن أبى قتادة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ سئل عن صوم يوم الاثنين، فقال: «**فيه ولدت وفيه أنزل علىّ**»، وفى لفظ: «**ذاك يوم ولدت فيه ويوم بعثت أو أنزل على فيه**» «صحيح مسلم ١/ ٣٦٨، وأحمد ٥/ ٢٩٧، ٢٩٩، والبيهقى ٤/ ٢٨٦، ٣٠٠، والحاكم ٢/ ٢-٦»، ويوم الاثنين فى رمضان من تلك السنة لا يوافق إلا اليوم السابع، والرابع عشر، والحادى والعشرين، والثامن والعشرين، وقد دلت الروايات الصحيحة أن ليلة القدر لا تقع إلا فى وتر من ليالى العشر الأواخر من رمضان، وأنها تنتقل فيما بين هذه الليالى، فإذا قارنّا بين قوله تعالى:] ! " # $ % & ' ( ) * + , - . / Z [القدر]، وبين رواية أبى قتادة: أن مبعثه ﷺ كان يوم الاثنين وبين حساب التقويم العلمى فى وقوع أيام الاثنين فى رمضان من تلك السنة، تعين لنا أن مبعثه كان فى اليوم الحادى والعشرين من رمضان ليلًا.

وهو التعبد - الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ: قال: «ما أنا بقارئ»، قال: «فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، قال: فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطنى الثالثة، ثم أرسلنى فقال:] S R Q P O N M L K Z Y X W V U T [العلق]»[(١)]، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: «زَمِّلُونى زملونى»، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة: «ما لى؟» فأخبرها الخبر، «لقد خشيت على نفسى»، فقالت خديجة: كلا، والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق[(٢)]، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة - وكان امرأ تنصر فى الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبرانى، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمى - فقالت له خديجة: يابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يابن أخى، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذى نزله الله على موسى، يا ليتنى فيها جَذَعا، ليتنى أكون حيًّا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «أو مخرجيّ هم؟» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودِىَ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا، ثم لم يَنْشَبْ ورقة أن توفى، وفَتَر الوحى[(٣)].

فَتْرَة الوحى:

أما مدة فترة الوحى، فاختلفوا فيها على عدة أقوال. والصحيح أنها كانت أيامًا، وقد روى ابن سعد عن ابن عباس ما يفيد ذلك[(٤)]. وأما ما اشتهر من أنها دامت ثلاث سنوات أو سنتين ونصفًا فليس بصحيح.

---

(١) نزلت الآيات إلى قوله تعالى:] ^ _ ` a b c Z [العلق].

(٢) الكل: الثقل، ويدخل فى حمل الكل الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال وغير ذلك، وكسب المعدوم هو إعطاء الفقير تبرعًا، والنوائب: الحوادث.

(٣) صحيح البخارى، ح (٣) وقد أخرجه البخارى مع اختلاف يسير فى اللفظ فى كتابى التفسير وتعبير الرؤيا، ح (٣٣٩٢، ٤٩٥٣، ٤٩٥٥- ٤٩٥٧، ٦٩٨٢)، وأخرجه مسلم فى كتاب الإيمان، ح (٢٥٢).

(٤) طبقات ابن سعد ١/ ١٩٦.

وقد ظهر لى شىء غريب بعد إدارة النظر فى الروايات وفى أقوال أهل العلم. ولم أر من تعرض له منهم، وهو أن هذه الأقوال والروايات تفيد أن رسول الله ﷺ كان يجاور بحراء شهرًا واحدًا، وهو شهر رمضان من كل سنة، وذلك من ثلاث سنوات قبل النبوة،وأن سنة النبوة كانت هى آخر تلك السنوات الثلاث، وأنه كان يتم جواره بتمام شهر رمضان، فكان ينزل بعده من حراء صباحًا – أى لأول يوم من شهر شوال – ويعود إلى البيت.

وقد ورد التنصيص فى رواية الصحيحين على أن الوحى الذى نزل عليه ﷺ بعد الفترة، إنما نزل وهو ﷺ راجع إلى بيته بعد إتمام جواره بتمام الشهر.

أقول: فهذا يفيد أن الوحى الذى نزل عليه ﷺ بعد الفترة إنما نزل فى أول يوم من شهر شوال بعد نهاية شهر رمضان الذى تشرف فيه بالنبوة والوحى؛ لأنه كان آخر مجاورة له بحراء، وإذا ثبت أن أول نزول الوحى كان فى ليلة الاثنين الحادية عشرة من شهر رمضان، فإن هذا يعنى أن فترة الوحى كانت لعشرة أيام فقط. وأن الوحى نزل بعدها صبيحة يوم الخميس لأول شوال من السنة الأولى من النبوة. ولعل هذا هو السر فى تخصيص العشر الأواخر من رمضان بالمجاورة والاعتكاف، وفى تخصيص أول شهر شوال بالعيد السعيد، والله أعلم.

وقد بقى رسول الله ﷺ فى أيام الفترة كئيبًا محزونًا تعتريه الحيرة والدهشة، فقد روى البخارى فى كتاب التعبير ما نصه:

«وفتر الوحى فترة حزن النبى ﷺ فيما بلغنا حزنًا[(١)] عدا منه مرارًا كى يتردى من رءوس شواهق الجبال، فكلما أوْفى بذِرْوَة جبل لكى يلقى نفسه منه تَبدَّى له جبريل فقال: يا محمد، إنك رسول الله حقًّا، فيسكن لذلك جأشه، وتَقَرّ نفسه، فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحى غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة الجبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك»[(٢)].

جبريل ينزل بالوحى مرة ثانية:

قال ابن حجر: وكان ذلك (أى انقطاع الوحى أيامًا) ؛ ليذهب ما كان ﷺ وجده من الروع، وليحصل له التشوف إلى العود[(٣)]، فلما حصل له ذلك وأخذ يرتقب مجىء الوحى، أكرمه الله بالوحى مرة ثانية. قال: ﷺ:

(١) بالعين المهملة من العدو، وهو الذهاب بسرعة، وفى بعض النسخ: «غدا» بالغين المعجمة.
(٢) صحيح البخارى، ح (٦٩٨٢).
(٣) فتح البارى ١/ ٢٧.

«جاورت بحراء شهرًا فلما قضيت جوارى هبطت [فلما استبطنت الوادي] فنوديت، فنظرت عن يمينى فلم أر شيئًا، ونظرت عن شمالى فلم أر شيئًا، ونظرت أمامى فلم أر شيئا، ونظرت خلفى فلم أرشيئًا، فرفعت رأسى فرأيت شيئًا، [فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض، فَجُئِثْتُ منه رعبًا حتى هويت إلى الأرض] فأتيت خديجة فقلت: [زملونى، زملونى]، دثرونى، وصبوا على ماء باردًا»، قال: «فدثرونى وصبوا على ماء باردًا، فنزلت:] يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ Z [المدثر]» وذلك قبل أن تفرض الصلاة، ثم حمى الوحى بعد وتتابع[1].

وهذه الآيات هى مبدأ رسالته ﷺ، وهى متأخرة عن النبوة بمقدار فترة الوحى. وتشتمل على نوعين من التكليف مع بيان ما يترتب عليه:

النوع الأول: تكليفه ﷺ بالبلاغ والتحذير، وذلك فى قوله تعالى:] قُمۡ فَأَنذِرۡ Z فإن معناه: حذر الناس من عذاب الله إن لم يرجعوا عما هم فيه من الغى والضلال وعبادة غير الله المتعال، والإشراك به فى الذات والصفات والحقوق و الأفعال.

النوع الثانى: تكليفه ﷺ بتطبيق أوامر الله سبحانه وتعالى على ذاته، والالتزام بها فى نفسه؛ ليحرز بذلك مرضاة الله، ويصير أسوة حسنة لمن آمن بالله وذلك فى بقية الآيات. فقوله:] وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ Z معناه: خصه بالتعظيم، ولا تشرك به فى ذلك أحدًا. وقوله:] وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ Z المقصود الظاهر منه: تطهير الثياب والجسد، إذ ليس لمن يكبر الله ويقف بين يديه أن يكون نجسًا مستقذرًا. وإذا كان هذا التطهر مطلوبًا فإن التطهر من أدران الشرك وأرجاس الأعمال والأخلاق أولى بالطلب، وقوله:] وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ Z معناه: ابتعد عن أسباب سخط الله وعذابه، وذلك بالتزام طاعته وترك معصيته. وقوله:] وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ Z أى: لا تحسن إحسانًا تريد أجره من الناس، أو تريد له جزاء أفضل فى هذه الدنيا.

أما الآية الأخيرة ففيها تنبيه على ما يلحقه من أذى قومه حين يفارقهم فى الدين ويقوم بدعوتهم إلى الله وحده وبتحذيرهم من عذابه وبطشه، فقال:] وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ Z ، ثم إن مطلع الآيات تضمنت النداء العلوى - فى صوت الكبير المتعال - بانتداب النبى ﷺ لهذا الأمر الجلل، وانتزاعه من النوم والتدثر والدفء إلى الجهاد والكفاح والمشقة:] يَٰٓأَيُّهَا

(١) صحيح البخارى: تفسير سورة المدثر، باب (١) وما بعده ٨/ ٤٤٥- ٤٤٧، ونحوه فى صحيح مسلم: كتاب الإيمان ١/ ١٤٤ ح (٢٥٧). و «جئثت»: أى ذُعِرت وخِفت.

ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ Z ، كأنه قيل: إن الذى يعيش لنفسه قد يعيش مستريحًا، أما أنت الذى تحمل هذا العبء الكبير فما لك والنوم؟ وما لك والراحة؟ وما لك والفراش الدافئ؟ والعيش الهادئ؟ والمتاع المريح ! قم للأمر العظيم الذى ينتظرك، والعبء الثقيل المهيأ لك، قم للجهد والنصب، والكد والتعب، قم فقد مضى وقت النوم والراحة، وما عاد منذ اليوم إلا السهر المتواصل، والجهاد الطويل الشاق، قم فتهيأ لهذا الأمر واستعد.

إنها كلمة عظيمة رهيبة تنزعه ﷺ من دفء الفراش فى البيت الهادئ والحضن الدافئ، لتدفع به فى الخضم، بين الزعازع والأنواء، وبين الشد والجذب فى ضمائر الناس وفى واقع الحياة سواء.

وقام رسول الله ﷺ، فظل قائمًا بعدها أكثر من عشرين عامًا؛ لم يسترح ولم يسكن، ولم يعش لنفسه ولا لأهله. قام وظل قائمًا على دعوة الله، يحمل على عاتقه العبء الثقيل الباهظ ولا ينوء به، عبء الأمانة الكبرى فى هذه الأرض، عبء البشرية كلها، عبء العقيدة كلها، وعبء الكفاح والجهاد فى ميادين شتى، عاش فى المعركة الدائبة المستمرة أكثر من عشرين عامًا؛ لا يلهيه شأن عن شأن فى خلال هذا الأمد منذ أن سمع النداء العلوى الجليل، وتلقى منه التكليف الرهيب... جزاه الله عنا وعن البشرية كلها خير الجزاء.

وليست الأوراق الآتية إلا صورة مصغرة بسيطة من هذا الجهاد الطويل الشاق الذى قام به رسول الله ﷺ خلال هذا الأمد.

أقسام الوحى:

وقبل الدخول فى موضوع هذا الجهاد، أرى من الأحسن أن أستطرد إلى بيان أقسام الوحى ومراتبه. قال ابن القيم، وهو يذكر تلك المراتب:

إحداها: الرؤيا الصادقة، وكانت مبدأ وحيه ﷺ.

الثانية: ما كان يلقيه الملك فى روعه وقلبه من غير أن يراه، كما قال النبى ﷺ: **«إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته».**

الثالثة: إنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلًا فيخاطبه حتى يَعِىَ عنه ما يقول له، وفى هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحيانًا.

الرابعة: إنه كان يأتيه فى مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه، فيلتبس به الملك،

حتى أن جبينه ليتَفَصَّد عرقًا فى اليوم الشديد البرد، وحتى أن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها، ولقد جاء الوحى مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت، فثقلت عليه حتى كادت ترضها.

الخامسة: إنه يرى الملك فى صورته التى خلق عليها، فيوحى إليه ما شاء الله أن يوحيه، وهذا وقع له مرتين، كما ذكر الله ذلك فى سورة النجم.

السادسة: ما أوحاه الله إليه، وهو فوق السموات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها.

السابعة: كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك، كما كلم الله موسى بن عمران، وهذه المرتبة هى ثابتة لموسى قطعًا بنص القرآن. وثبوتها لنبينا ﷺ هو فى حديث الإسراء.

وقد زاد بعضهم مرتبة ثامنة: وهى تكليم الله له كفاحًا من غير حجاب، وهى مسألة خلاف بين السلف والخلف. انتهى مع تلخيص يسير فى بيان المرتبة الأولى والثامنة[1].

(١) انظر: زاد المعاد ١/ ١٨.

obeikandl.com

المرحلة الأولى

من جهاد الدعوة إلى الله

ثلاث سنوات من الدعوة السرية:

قام رسول الله ﷺ – بعد نزول ما تقدم من آيات سورة المدثر – بالدعوة إلى الله سبحانه وتعالى؛ وحيث إن قومه كانوا جفاة لا دين لهم إلا عبادة الأصنام والأوثان، ولا حجة لهم إلا أنهم ألفوا آباءهم على ذلك، ولا أخلاق لهم إلا الأخذ بالعزة والأنفة، ولا سبيل لهم فى حل المشاكل إلا السيف، وكانوا مع ذلك متصدرين للزعامة الدينية فى جزيرة العرب، ومحتلين مركزها الرئيس، ضامنين حفظ كيانها، فقد كان من الحكمة تلقاء ذلك أن تكون الدعوة فى بدء أمرها سرية؛ لئلا يفاجئ أهل مكة بما يهيجهم.

الرعيل الأول:

وكان من الطبيعى أن يعرض الرسول ﷺ الإسلام أولًا على ألصق الناس به من أهل بيته، وأصدقائه، فدعاهم إلى الإسلام، ودعا إليه كل من توسم فيه الخير ممن يعرفهم ويعرفونه، يعرفهم بحب الحق والخير، ويعرفونه بتحرى الصدق والصلاح، فأجابه من هؤلاء – الذين لم تخالجهم ريبة قط فى عظمة الرسول ﷺ وجلالة نفسه وصدق خبره – جَمْعٌ عُرِفوا فى التاريخ الإسلامى بالسابقين الأولين، وفى مقدمتهم زوجة النبى ﷺ أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، ومولاه زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبى[1] وابن عمه على بن أبى طالب – وكان صبيا يعيش فى كفالة الرسول ﷺ – وصديقه الحميم أبو بكر الصديق. أسلم هؤلاء فى أول يوم الدعوة.

ثم نشط أبو بكر فى الدعوة إلى الإسلام، وكان رجلًا مألفًا محببًا سهلًا ذا خلق ومعروف،وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه؛ لعلمه وتجارته وحسن مجالسته، فجعل يدعو من يثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه، فأسلم بدعوته عثمان بن عفان الأموى، والزبير

(١) كان قد أُسِر ورُقّ، فملكته خديجة، ووهبته لرسول الله ﷺ، وجاءه أبوه وعمه ليذهبا به إلى قومه وعشيرته، فاختار عليهما رسول الله ﷺ، فتبناه حسب قواعد العرب، وكان لذلك يقال: زيد بن محمد، حتى جاء الإسلام فأبطل التبنى. قتل شهيدًا يوم مؤتة فى جمادى الأولى سنة ٨ هـ وهو أمير جيش المسلمين.

ابن العوام الأسدى، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص الزهريان، وطلحة بن عبيد الله التيمى. فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا الناس هم الرعيل الأول وطليعة الإسلام.

ثم تلا هؤلاء أمين هذه الأمة[١] أبو عبيدة عامر بن الجراح من بنى الحارث بن فهر، وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى، وامرأته أم سلمة، والأرقم بن أبى الأرقم المخزومى، وعثمان بن مظعون الجُمَحِىّ وأخواه قدامة وعبد الله، وعبيدة بن الحارث ابن المطلب بن عبد مناف، وسعيد ابن زيد العدوى، وامرأته فاطمة بنت الخطاب العدوية أخت عمر بن الخطاب، وخباب بن الأرت التميمى، وجعفر بن أبى طالب، وامرأته أسماء بنت عُمَيْس، وخالد بن سعيد بن العاص الأموى، وامرأته أمينة بنت خلف، ثم أخوه عمرو بن سعيد ابن العاص، وحاطب بن الحارث الجمحى، وامرأته فاطمة بنت المُجَلِّل وأخوه الخطاب ابن الحارث، وامرأته فُكَيْهَة بنت يسار، وأخوه معمر ابن الحارث، والمطلب بن أزهر الزهرى، وامرأته رملة بنت أبى عوف، ونعيم ابن عبد الله بن النحام العدوى، وهؤلاء كلهم قرشيون من بطون وأفخاذ شتى من قريش.

ومن السابقين الأولين إلى الإسلام من غير قريش: عبد الله بن مسعود الهذلى، ومسعود بن ربيعة القارى، وعبد الله بن جحش الأسدى وأخوه أبو أحمد بن جحش، وبلال بن رباح الحبشى، وصُهَيْب بن سِنان الرومى، وعمار بن ياسر العنسى، وأبوه ياسر، وأمه سمية، وعامر بن فُهيرة.

وممن سبق إلى الإسلام من النساء غير من تقدم ذكرهن: أم أيمن بركة الحبشية، وأم الفضل لبابة الكبرى بنت الحارث الهلالية زوج العباس بن عبد المطلب، وأسماء بنت أبى بكر الصديق رضي الله عنهما[٢].

هؤلاء معروفون بالسابقين الأولين، ويظهر بعد التتبع والاستقراء أن عدد الموصوفين بالسبق إلى الإسلام وصل إلى مائة وثلاثين رجلًا وامرأة، ولكن لا يعرف بالضبط أنهم كلهم أسلموا قبل الجهر بالدعوة أو تأخر إسلام بعضهم إلى الجهر بها.

الصلاة:

ومن أوائل ما نزل من الأحكام الأمر بالصلاة، قال ابن حجر: كان ﷺ قبل الإسراء

(١) انظر لتسميته بهذا اللقب: صحيح البخارى: مناقب أبى عبيدة بن الجراح ١/ ٥٣٠.

(٢) انظر للتفصيل: سيرة ابن هشام ١/ ٢٤٥- ٢٦٢، وفى تسمية بعض من سمى فيه نظر.

يصلى قطعًا وكذلك أصحابه، ولكن اختلف هل فرض شىء قبل الصلوات الخمس من الصلوات أم لا؟ فقيل: إن الفرض كانت صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها. انتهى. وروى الحارث بن أبى أسامة من طريق ابن لَهِيعَة موصولًا عن زيد بن حارثة: أن رسول الله ﷺ فى أول ما أوحى إليه أتاه جبريل، فعلمه الوضوء، فلما فرغ من الوضوء أخذ غرفة من ماء فنضح بها فرجه، وقد رواه ابن ماجه بمعناه، وروى نحوه عن البراء بن عازب وابن عباس، وفى حديث ابن عباس: وكان ذلك من أول الفريضة[١].

وقد ذكر ابن هشام أن النبى ﷺ وأصحابه كانوا إذا حضرت الصلاة ذهبوا فى الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم، وقد رأى أبو طالب النبى ﷺ وعليًا يصليان مرة، فكلمهما فى ذلك، ولما عرف جلية الأمر أمرهما بالثبات[٢].

تلك هى العبادة التى أمر بها المؤمنون، ولا تعرف لهم عبادات وأوامر ونواه أخرى غير ما يتعلق بالصلاة، وإنما كان الوحى يبين لهم جوانب شتى من التوحيد، ويرغبهم فى تزكية النفوس، ويحثهم على مكارم الأخلاق، ويصف لهم الجنة والنار كأنهما رأى عين، ويعظهم بمواعظ بليغة تشرح الصدور وتغذى الأرواح، وتحدو بهم إلى جو آخر غير الذى كان فيه المجتمع البشرى آنذاك.

وهكذا مرت ثلاثة أعوام، والدعوة لم تزل مقصورة على الأفراد، ولم يجهر بها النبى ﷺ فى المجامع والنوادى،إلا أنها عرفت لدى قريش، وفشا ذكر الإسلام بمكة، وتحدث به الناس، وقد تنكر له بعضهم أحيانًا، واعتدوا على بعض المؤمنين، إلا أنهم لم يهتموا به كثيرًا حيث لم يتعرض رسول الله ﷺ لدينهم، ولم يتكلم فى آلهتهم.

(١) مختصر السيرة للشيخ عبد الله النجدى، ص ٨٨.

(٢) ابن هشام ١/ ٢٤٧، والخبر أيضًا فى مسند أبى داود الطيالسى، ص ٢٦.

المرحلة الثانية

الدعوة جهارًا

أول أمر بإظهار الدعوة:

لما تكونت جماعة من المؤمنين تقوم على الأخوة والتعاون، وتتحمل عبء تبليغ الرسالة وتمكينها من مقامها نزل الوحى يكلف رسول الله ﷺ بمعالنة الدعوة، ومجابهة الباطل بالحسنى.

وأول ما نزل بهذا الصدد قوله تعالى:] وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ Z [الشعراء]، وقد ورد فى سياق ذكرت فيه أولًا قصة موسى عليه السلام ، من بداية نبوته إلى هجرته مع بنى إسرائيل، وقصة نجاتهم من فرعون وقومه، وإغراق آل فرعون معه، وقد اشتملت هذه القصة على جميع المراحل التى مر بها موسى عليه السلام ، خلال دعوة فرعون وقومه إلى الله.

وكأن هذا التفصيل جىء به مع أمر الرسول ﷺ بجهر الدعوة إلى الله؛ ليكون أمامه وأمام أصحابه مثال لما سيلقونه من التكذيب والاضطهاد حينما يجهرون بالدعوة، وليكونوا على بصيرة من أمرهم منذ البداية.

ومن ناحية أخرى تشتمل هذه السورة على ذكر مآل المكذبين للرسل، من قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم إبراهيم، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة – عدا ما ذكر من أمر فرعون وقومه – ليعلم الذين سيقومون بالتكذيب عاقبة أمرهم وما سيلقونه من مؤاخذة الله إن استمروا عليه، وليعرف المؤمنون أن حسن العاقبة لهم وليس للمكذبين.

الدعوة فى الأقربين:

ودعا رسول الله ﷺ عشيرته بنى هاشم بعد نزول هذه الآية، فجاءوا ومعهم نفر من بنى المطلب بن عبد مناف، فكانوا نحو خمسة وأربعين رجلًا. فلما أراد أن يتكلم رسول الله ﷺ بادره أبو لهب وقال: هؤلاء عمومتك وبنو عمك فتكلم، ودع الصباة، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة، وأنا أحق من أخذك، فحسبك بنو أبيك، وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش، وتمدهم العرب، فما رأيت أحدًا جاء على بنى أبيه بشر مما جئت به، فسكت رسول الله ﷺ، ولم يتكلم فى ذلك المجلس.

ثم دعاهم ثانية وقال: «**الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأومن به، وأتوكل عليه. وأشهد**

أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له». ثم قال: «إن الرائد لا يكذب أهله، والله الذى لا إله إلا هو، إنى رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، وإنها الجنة أبدًا أو النار أبدًا».

فقال أبو طالب: ما أحب إلينا معاونتك، وأقبلنا لنصيحتك، وأشد تصديقًا لحديثك.

وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم، غير أنى أسرعهم إلى ما تحب، فامض لما أمرت به. فوالله، لا أزال أحوطك وأمنعك، غير أن نفسى لا تطاوعنى على فراق دين عبد المطلب.

فقال أبو لهب: هذه والله السوأة، خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم، فقال أبو طالب: والله لنمنعه ما بقينا[1].

على جبل الصفا:

وبعد تأكد النبى ﷺ من تعهد أبى طالب بحمايته وهو يبلغ عن ربه، صعد النبى ﷺ ذات يوم على الصفا، فعلا أعلاها حجرًا، ثم هتف: **«يا صباحاه»**.

وكانت كلمة إنذار تخبر عن هجوم جيش أو وقوع أمر عظيم.

ثم جعل ينادى بطون قريش، ويدعوهم قبائل قبائل: **«يا بنى فهر، يا بنى عدى، يا بنى فلان، يا بنى فلان، يا بنى عبد مناف، يا بنى عبد المطلب»**.

فلما سمعوا قالوا: من هذا الذى يهتف؟ قالوا: محمد. فأسرع الناس إليه، حتى إن الرجل إذا لم يستطع أن يخرج إليه أرسل رسولًا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش.

فلما اجتمعوا قال: **«أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادى بسَفْح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مُصَدِّقِيَّ؟»**.

قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذبًا، ما جربنا عليك إلا صدقًا.

قال: **«إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد، إنما مثلى ومثلكم كمثل رجل رأى العَدُوّ فانطلق يَرْبَأ أهله»** (أى: يتطلع وينظر لهم من مكان مرتفع لئلا يدهمهم العدو) **«فخشى أن يسبقوه فجعل ينادى: يا صباحاه»**.

ثم دعاهم إلى الحق، وأنذرهم من عذاب الله، فخص وعم فقال:

---

(١) الكامل لابن الأثير ١/ ٥٨٤، ٥٨٥.

obeikandl.com

«يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم من الله، أنقذوا أنفسكم من النار، فإنى لا أملك لكم من الله ضرًّا ولا نفعًا، ولا أغنى عنكم من الله شيئًا.

يا بنى كعب بن لؤى، أنقذوا أنفسكم من النار، فإنى لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعًا.

يا بنى مرة بن كعب، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا معشر بنى قصى، أنقذوا أنفسكم من النار، فإنى لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعًا.

يا معشر بنى عبد مناف، أنقذوا أنفسكم من النار، فإنى لا أملك لكم من الله ضرًّا ولا نفعًا، ولا أغنى عنكم من الله شيئًا.

يا بنى عبد شمس، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بنى هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا معشر بنى عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار، فإنى لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعًا، ولا أغنى عنكم من الله شيئًا، سلونى من مالى ماشئتم، لا أملك لكم من الله شيئًا.

يا عباس بن عبد المطلب، لا أغنى عنك من الله شيئًا.

يا صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله، لا أغنى عنك من الله شيئًا.

يا فاطمة بنت محمد رسول الله، سلينى ما شئت من مالى، أنقذى نفسك من النار، فإنى لا أملك لك ضرًّا ولا نفعًا، ولا أغنى عنك من الله شيئًا.

غير أن لكم رحمًا سأبُلُّها بِبلاَلها» أى: أصلها حسب حقها.

ولما تم هذا الإنذار انفض الناس وتفرقوا، ولا يذكر عنهم أى ردة فعل، سوى أن أبا لهب واجه النبى ﷺ بالسوء، وقال: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت:] X Y Z [\ ] Z [سورة المسد][1].

كانت هذه الصيحة العالية هى غاية البلاغ، فقد أوضح الرسول ﷺ لأقرب الناس إليه أن التصديق بهذه الرسالة هو حياة الصلات بينه وبينهم، وأن عصبة القرابة التى يقوم عليها العرب ذابت فى حرارة هذا الإنذار الآتى من عند الله.

ولم يزل هذا الصوت يرتج دويه فى أرجاء مكة حتى نزل قوله تعالى:] . / 0

(١) صحيح البخارى، ح (٢٧٣٣، ٣٥٢٥- ٣٥٢٧، ٤٧٧١) (الفتح ٥/ ٤٤٩، ٦/ ٦٣٧، ٨/ ٣٦٠) صحيح مسلم ١/ ١١٤، وجامع الترمذى: تفسير سورة الشعراء ٥/ ٣١٦، ٣١٧، ح (٣١٨٤- ٣١٨٦) وغيرهم، وقد جمعت حروفهم وألفتها تأليفًا مسلسلًا.

Z 4 3 2 1 [الحجر]، فقام رسول الله ﷺ يجهر بالدعوة إلى الإسلام فى مجامع المشركين ونواديهم، يتلو عليهم كتاب الله، ويقول لهم ما قالته الرسل لأقوامهم:] ; Z B A @ ? > = < [الأعراف: ٥٩]، وبدأ يعبد الله تعالى أمام أعينهم، فكان يصلى بفناء الكعبة نهارًا جهارًا وعلى رءوس الأشهاد.

وقد نالت دعوته مزيدًا من القبول، ودخل الناس فى دين الله واحدًا بعد واحد. وحصل بينهم وبين من لم يسلم من أهل بيتهم تباغض وتباعد وعناد، واشمأزت قريش من كل ذلك، وساءهم ما كانوا يبصرون.

المجلس الاستشارى لكف الحجاج عن استماع الدعوة:

وخلال هذه الأيام أهم قريشًا أمر آخر،وذلك أن الجهر بالدعوة لم يمض عليه إلا أيام أو أشهر معدودة حتى قرب موسم الحج، وعرفت قريش أن وفود العرب ستقدم عليهم، فرأت أنه لابد من كلمة يقولونها للعرب فى شأن محمد ﷺ، حتى لا يكون لدعوته أثر فى نفوس العرب، فاجتمعوا إلى الوليد بن المغيرة يتداولون فى تلك الكلمة، فقال لهم الوليد: أجمعوا فيه رأيًا واحدًا،ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا، ويرد قولكم بعضه بعضًا، قالوا: فأنت فقل، وأقم لنا رأيًا نقول به. قال: بل أنتم فقولوا أسمع. قالوا: نقول: كاهن. قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزَمْزَمَة الكاهن ولا سجعه. قالوا: فنقول: مجنون، قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، ما هو بخَنْقِه ولا تَخَالُجِه ولا وسوسته. قالوا: فنقول: شاعر. قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رَجَزَه وهَزَجَه وقَرِيضَه ومَقْبُوضه ومَبْسُوطه، فما هو بالشعر، قالوا: فنقول: ساحر. قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنَفْثِهِم ولا عقْدِهِم. قالوا: فما نقول؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة، [وإن عليه لطلاوة] وإن أصله لعَذَق، وإن فَرْعَه لجَنَاة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا: ساحر. جاء بقول هو سحر، يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته، فتفرقوا عنه بذلك[1].

وتفيد بعض الروايات أن الوليد لما رد عليهم كل ما عرضوا له، قالوا: أرنا رأيك الذى لا غضاضة فيه، فقال لهم: أمهلونى حتى أفكر فى ذلك، فظل الوليد يفكر ويفكر حتى أبدى لهم رأيه الذى ذكر آنفًا.

(١) ابن هشام ١/ ٢٧١، و أخرجه أيضًا البيهقى وأبو نعيم فى الدلائل وغيرهما.

وفى الوليد أنزل الله تعالى ست عشرة آية من سورة المدثر [من ١١ إلى ٢٦] وفى خلالها صور كيفية تفكيره، فقال:] ! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = > ? @ A B C D E Z [المدثر].

وبعد أن اتفق المجلس على هذا القرار أخذوا فى تنفيذه، فجلسوا بسبل الناس حين قدموا للموسم، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره[١].

أما رسول الله ﷺ فخرج يتبع الناس فى منازلهم وفى عُكَاظ ومَجَنَّة وذى المَجَاز، يدعوهم إلى الله، وأبو لهب وراءه يقول: لا تطيعوه فإنه صابئ كذاب[٢].

وأدى ذلك إلى أن صدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ، وانتشر ذكره فى بلاد العرب كلها.

أساليب شتى لمجابهة الدعوة:

ولما فرغت قريش من الحج فكرت فى أساليب تقضى بها على هذه الدعوة فى مهدها. وتتلخص هذه الأساليب فيما يلى:

١ـ السخرية والتحقير، والاستهزاء والتكذيب والتضحيك:

قصدوا بها تخذيل المسلمين، وتوهين قواهم المعنوية، فرموا النبى ﷺ بتهم هازلة، وشتائم سفيهة، فكانوا ينادونه بالمجنون] K L M N O P Q R S Z [الحجر]، ويصمونه بالسحر والكذب] وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ Z [ص]، وكانوا يشيعونه ويستقبلونه بنظرات ملتهمة ناقمة، وعواطف منفعلة هائجة] وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ Z [القلم]،وكان إذا جلس وحوله المستضعفون من أصحابه استهزأوا بهم وقالوا: هؤلاء جلساؤه] ' ( ) * + , Z [الأنعام: ٥٣]، قال تعالى:] - . / 0 1 Z [الأنعام]،وكانوا كما قص الله علينا] Â Ã Ä Å Æ Ç È É Ê Ë Ì Í Î Ï Ð Ñ Ò Ó Ô Õ Ö × Ø

(١) ابن هشام ١/ ٢٧١.

(٢) روى فعله هذا الإمام أحمد فى مسنده ٣/ ٤٩٢، ٤/ ٣٤١، وانظر أيضا: البداية والنهاية ٥/ ٧٥، وكنز العمال ١٢/ ٤٤٩، ٤٥٠.

Z â á à ß Þ Ý Ü Û Ú Ù [المطففين].

وقد أكثروا من السخرية والاستهزاء وزادوا من الطعن والتضحيك شيئًا فشيئًا حتى أثر ذلك فى نفس رسول الله ﷺ، كما قال الله تعالى: [Z J I H G F E D C [الحجر]، ثم ثبته الله وأمره بما يذهب بهذا الضيق فقال: [P O N M L K Z W V U T S R Q [الحجر]، وقد أخبره من قبل أنه يكفيه هؤلاء المستهزئين حيث قال: [@ ! > = < ; : 9 8 7 6 5 Z B A [الحجر]، وأخبره أن فعلهم هذا سوف ينقلب وبالًا عليهم فقال: [+ , - . / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 Z [الأنعام].

٢ـ إثارة الشبهات وتكشيف الدعايات الكاذبة:

وقد أكثروا من ذلك وتفننوا فيه بحيث لا يبقى لعامة الناس مجال للتدبر فى دعوته والتفكير فيها، فكانوا يقولون عن القرآن: [U V Z [الأنبياء: ٥] يراها محمد بالليل ويتلوها بالنهار، ويقولون: [X Z من عند نفسه ويقولون: [% & ' | Z ، وقالوا: [إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ Z [الفرقان: ٤] أى: اشترك هو وزملاؤه فى اختلاقه. [وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٥ Z [الفرقان] وأحيانا قالوا: إن له جنًا أو شيطانًا يتنزل عليه كما ينزل الجن والشياطين على الكهان. قال تعالى ردًا عليهم: [هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ٢٢٢ Z [الشعراء]، أى: إنها تنزل على الكذاب الفاجر المتلطخ بالذنوب، وما جرّبتم علىّ كذبًا، وما وجدتم فى فسقًا، فكيف تجعلون القرآن من تنزيل الشيطان؟

وأحيانًا قالوا عن النبى ﷺ: إنه مصاب بنوع من الجنون، فهو يتخيل المعانى، ثم يصوغها فى كلمات بديعة رائعة كما يصوغ الشعراء، فهو شاعر وكلامه شعر. قال تعالى ردًّا عليهم: [وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ٢٢٤ أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ ٢٢٥ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ ٢٢٦ Z [الشعراء]، فهذه ثلاث خصائص يتصف بها الشعراء، ليست واحدة منها فى النبى ﷺ، فالذين اتبعوه هداة مهتدون، متقون صالحون فى دينهم وخلقهم وأعمالهم وتصرفاتهم، وليست عليهم مسحة من الغواية فى أى شأن من شئونهم، ثم النبى ﷺ لا يهيم فى كل واد كما يهيم الشعراء، بل هو يدعو إلى رب واحد، ودين واحد، وصراط واحد، وهو لا يقول إلا ما يفعل، ولا يفعل إلا ما يقول، فأين هو من الشعر والشعراء؟ وأين الشعر

والشعراء منه؟.

هكذا كان يرد عليهم بجواب مقنع حول كل شبهة كانوا يثيرونها ضد النبى ﷺ والقرآن والإسلام.

ومعظم شبهتهم كانت تدور حول التوحيد، ثم رسالة محمد ﷺ، ثم بعث الأموات ونشرهم وحشرهم يوم القيامة، وقد رد القرآن على كل شبهة من شبهاتهم حول التوحيد، بل زاد عليها زيادات أوضح بها هذه القضية من كل ناحية، وبين عجز آلهتهم عجزًا لا مزيد عليه، ولعل هذا كان مثار غضبهم واستنكارهم الذى أدى إلى ما أدى إليه.

أما شبهاتهم فى رسالة النبى ﷺ فإنهم مع اعترافهم بصدق النبى ﷺ وأمانته وغاية صلاحه وتقواه، كانوا يعتقدون أن منصب النبوة والرسالة أجل وأعظم من أن يعطى لبشر، فالبشر لا يكون رسولًا، والرسول لا يكون بشرًا حسب عقيدتهم. فلما أعلن رسول الله ﷺ عن نبوته، ودعا إلى الإيمان به تحيروا وقالوا:] مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ Z [الفرقان: ٧]، وقالوا: إن محمدًا ﷺ بشر،و]) (* + , - . Z [الأنعام: ١٩]، فقال تعالى ردا عليهم:] 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : Z ، وكانوا يعرفون ويعترفون بأن موسى بشر. ورد عليهم أيضًا بأن كل قوم قالوا لرسلهم إنكارًا على رسالتهم:] ¹ º » ¼ ½ ¾ Z [إبراهيم: ١٠]، فـ] ! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 Z [إبراهيم: ١١]. فالأنبياء والرسل لا يكونون إلا بشرًا، ولا منافاة بين البشرية والرسالة.

وحيث إنهم كانوا يعترفون بأن إبراهيم و إسماعيل وموسى - عليهم السلام - كانوا رسلًا وكانوا بشرًا، فإنهم لم يجدوا مجالًا للإصرار على شبهتهم هذه،فقالوا: ألم يجد الله لحمل رسالته إلا هذا اليتيم المسكين،ما كان الله ليترك كبار أهل مكة والطائف ويتخذ هذا المسكين رسولًا] لَوۡلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٖ ﴿٣١﴾ Z [الزخرف]، قال تعالى ردًّا عليهم:] أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَ Z [الزخرف: ٣٢]، يعنى: أن الوحى والرسالة رحمة من الله، و] Ç Æ Å Ä Ã Z [الأنعام: ١٢٤].

وانتقلوا بعد ذلك إلى شبهة أخرى، قالوا: إن رسل ملوك الدنيا يمشون فى موكب من الخدم والحشم، ويتمتعون بالأبهة والجلال، ويوفر لهم كل أسباب الحياة، فما بال محمد يدفع فى الأسواق للقمة عيش وهو يدعى أنه رسول الله؟] لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ

نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ Z [الفرقان]، ورد على شبهتهم هذه بأن محمدًا رسول، يعنى: أن مهمته هو إبلاغ رسالة الله إلى كل صغير وكبير، وضعيف وقوى، وشريف ووضيع، وحر وعبد، فلو لبث فى الأبهة والجلال والخدم والحشم والحرس والمواكبين مثل رسل الملوك، لم يكن يصل إليه ضعفاء الناس وصغارهم حتى يستفيدوا به، وهم جمهور البشر، وإذن فاتت مصلحة الرسالة، ولم تعد لها فائدة تذكر.

أما إنكارهم البعث بعد الموت، فلم يكن عندهم فى ذلك إلا التعجب والاستغراب والاستبعاد العقلى، فكانوا يقولون:] أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ Z [الصافات]، وكانوا يقولون:] 7 8 9 : Z [ق] وكانوا يقولون على سبيل الاستغراب:] ° » ¼ ½ ¾ ¿ À Á Â Ã Ä Å Æ Ç Z| ' & % $ # " ! [سبأ: ٧، ٨].

وقال قائلهم:

أَمـــوْتٌ ثـم بَـعْـثٌ ثـم حَـشْـرٌ حـدِيـثُ خُـرَافـة يـا أم عمرو

وقد رد عليهم بتبصيرهم ما يجرى فى الدنيا، فالظالم يموت دون أن يلقى جزاء ظلمه، والمظلوم يموت دون أن يأخذ حقه من ظالمه، والمحسن الصالح يموت قبل أن يلقى جزاء إحسانه وصلاحه، والفاجر المسىء يموت قبل أن يعاقب على سوء عمله، فإن لم يكن بعث ولا حياة ولا جزاء بعد الموت لاستوى الفريقان، بل لكان الظالم والفاجر أسعد من المظلوم والصالح، وهذا غير معقول إطلاقا. ولا يتصور من الله أن يبنى نظام خلقه على مثل هذا الفساد. قال تعالى:] ¾ ¿ À Á Â Ã Ä Å Æ Z [القلم]، وقال:] 4 5 6 7 8 9 : ; < = > ? @ A Z [ص]، وقال:] أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ Z [الجاثية].

وأما الاستبعاد العقلى فقال تعالى ردًا عليه:] Z [\ ] ^ Z [النازعات: ٢٧]، وقال:] أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ Z [الأحقاف]، وقال:] ` a b c d e f Z [الواقعة]، وبين ما هو معروف عقلًا وعرفًا، وهو أن الإعادة] D E Z

[الروم: ٢٧]،وقال:] ? @ A B C Z [الأنبياء: ١٠٤]، وقال:] Æ Ç È Z [ق: ١٥].

وهكذا رد على كل ما أثاروا من الشبهات ردًّا مفحمًا يقنع كل ذى عقل ولب، ولكنهم كانوا مشاغبين مستكبرين يريدون عُلوا فى الأرض وفرض رأيهم على الخلق، فبقوا فى طغيانهم يعمهون.

٣ - الحيلولة بين الناس وبين سماعهم القرآن، ومعارضته بأساطير الأولين:

كان المشركون - بجنب إثارة هذه الشبهات- يحولون بين الناس وبين سماعهم القرآن ودعوة الإسلام بكل طريق يمكن، فكانوا يطردون الناس ويثيرون الشغب والضوضاء ويتغنون ويلعبون، إذا رأوا أن النبى ﷺ يتهيأ للدعوة، أو إذا رأوه يصلى ويتلو القرآن. قال تعالى:] وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ Z [فصلت] حتى إن النبى ﷺ لم يتمكن من تلاوة القرآن عليهم فى مجامعهم ونواديهم إلا فى أواخر السنة الخامسة من النبوة، وذلك أيضًا عن طريق المفاجأة، دون أن يشعروا بقصده قبل بداية التلاوة.

وكان النضر بن الحارث أحد شياطين قريش قد قدم الحيرة، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم واسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسًا للتذكير بالله والتحذير من نقمته خلفه النضر ويقول: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثًا منه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثًا منى[(١)].

وفى رواية عن ابن عباس أن النضر كان قد اشترى قَيْنَةً، فكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته، فيقول: أطعميه واسقيه وغنيه، هذا خير مما يدعوك إليه محمد، وفيه نزل قوله تعالى:] @ A B C D E F G H I Z [لقمان: ٦][(٢)].

الاضطهادات:

أعمل المشركون الأساليب التى ذكرناها شيئًا فشيئًا لإحباط الدعوة بعد ظهورها فى بداية السنة الرابعة من النبوة، ومضت على ذلك أسابيع وشهور وهم مقتصرون على هذه الأساليب لا يتجاوزونها إلى طريق الاضطهاد والتعذيب، ولكنهم لما رأوا أن هذه الأساليب لم تجد نفعًا فى إحباط الدعوة الإسلامية استشاروا فيما بينهم، فقرروا القيام

(١) ملخصًا من ابن هشام ١/ ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٥٨.

(٢) الدر المنثور: تفسير سورة لقمان (٥/ ٣٠٧).

بتعذيب المسلمين وفتنتهم عن دينهم، فأخذ كل رئيس يعذب من دان من قبيلته بالإسلام، وانقض كل سيد على من اختار من عبيده طريق الإيمان.

وكان من الطبيعى أن يهرول الأذناب والأوباش خلف ساداتهم وكبرائهم، ويتحركوا حسب مرضاتهم وأهوائهم، فجروا على المسلمين - ولاسيما الضعفاء منهم - ويلات تقشعر منها الجلود، وأخذوهم بنقمات تتفطر لسماعها القلوب.

كان أبو جهل إذا سمع برجل قد أسلم له شرف ومنعة أنبه وأخزاه، وأوعده بإبلاغ الخسارة الفادحة فى المال، والجاه، وإن كان ضعيفًا ضربه وأغرى به[(١)].

وكان عم عثمان بن عفان يلفه فى حصير من ورق النخيل ثم يدخنه من تحته[(٢)].

ولما علمت أم مصعب بن عمير بإسلامه منعته الطعام والشراب، وأخرجته من بيته، وكان من أنعم الناس عيشًا، فتَخَشَّفَ جلده تخشف الحية[(٣)].

وكان صهيب بن سنان الرومى يُعذَّب حتى يفقد وعيه ولا يدرى ما يقول[(٤)].

وكان بلال مولى أمية بن خلف الجمحى، فكان أمية يضع فى عنقه حبلًا، ثم يسلمه إلى الصبيان، يطوفون به فى جبال مكة، ويجرونه حتى كان الحبل يؤثر فى عنقه، وهو يقول: أَحَدٌ أَحَدٌ، وكان أمية يشده شدًّا ثم يضربه بالعصا، و يلجئه إلى الجلوس فى حر الشمس، كما كان يكرهه على الجوع. وأشد من ذلك كله أنه كان يخرجه إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره فى الرمضاء فى بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول: لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى، فيقول وهو فى ذلك: أحد،أحد، ويقول: لو أعلم كلمة هى أغيظ لكم منها لقلتها. ومر به أبو بكر يوما وهم يصنعون ذلك به فاشتراه بغلام أسود، وقيل: بسبع أواق أو بخمس من الفضة، وأعتقه[(٥)].

وكان عمار بن ياسر رضي الله عنه مولى لبنى مخزوم، أسلم هو وأبوه وأمه، فكان المشركون - وعلى رأسهم أبو جهل - يخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء فيعذبونهم بحرها.

(١) ابن هشام ١/ ٣٢٠.
(٢) رحمة للعالمين ١/ ٥٧.
(٣) أسد الغابة ٤/ ٤٠٦، وتلقيح فهوم أهل الأثر، ص ٦٠.
(٤) الإصابة ٣، ٤/ ٢٥٥، وابن سعد ٣/ ٢٤٨.
(٥) ابن هشام ١/ ٣١٧، ٣١٨، وتلقيح فهوم أهل الأثر، ص ٦١، وتفسير ابن كثير: سوره النحل، الآية: ١٠٦(٢/ ٦٤٨).

ومر بهم النبى ﷺ وهم يعذبون فقال: «صبرًا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة»، فمات ياسر فى العذاب، وطعن أبو جهل سمية - أم عمار - فى قبلها بحربة فماتت، وهى أول شهيدة فى الإسلام، وهى سمية بنت خياط مولاة أبى حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وكانت عجوزًا كبيرة ضعيفة. وشددوا العذاب على عمار بالحر تارة، وبوضع الصخر الأحمر على صدره أخرى، وبغطه فى الماء حتى كان يفقد وعيه. وقالوا له: لا نتركك حتى تسب محمدًا، أو تقول فى اللات والعزى خيرًا، فوافقهم على ذلك مكرهًا، وجاء باكيًا معتذرًا إلى النبى ﷺ. فأنزل الله: [M N O P Q R S T U V W X Z الآية [النحل: ١٠٦][(١)].

وكان أبو فُكَيْهَةَ - واسمة أفلح - مولى لبنى عبد الدار، وكان من الأزد. فكانوا يخرجونه فى نصف النهار فى حر شديد، وفى رجليه قيد من حديد، فيجردونه من الثياب، ويبطحونه فى الرمضاء، ثم يضعون على ظهره صخرة حتى لا يتحرك، فكان يبقى كذلك حتى لا يعقل، فلم يزل يعذب كذلك حتى هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، وكانوا مرة قد ربطوا رجله بحبل، ثم جروه وألقوه فى الرمضاء وخنقوه حتى ظنوا أنه قد مات، فمر به أبو بكر فاشتراه وأعتقه لله[(٢)].

وكان خباب بن الأرت مولى لأم أنمار بنت سِباع الخزاعية، وكان حدادًا، فلما أسلم عذبته مولاته بالنار، كانت تأتى بالحديدة المحماة فتجعلها على ظهره أو رأسه، ليكفر بمحمد ﷺ، فلم يكن يزيده ذلك إلا إيمانًا وتسليمًا، وكان المشركون أيضًا يعذبونه فيلوون عنقه، ويجذبون شعره، وقد ألقوه على النار، ثم سحبوه عليها، فما أطفأها إلا وَدَكَ ظهره[(٣)].

وكانت زِنِّيرَةُ أَمَةً رومية قد أسلمت فعذبت فى الله، وأصيبت فى بصرها حتى عميت، فقيل لها: أصابتك اللات والعزى، فقالت: لا والله ما أصابتنى، وهذا من الله، وإن شاء كشفه، فأصبحت من الغد وقد رد الله بصرها، فقالت قريش: هذا بعض سحر محمد[(٤)].

وأسلمت أم عُبَيْس، جارية لبنى زهرة، فكان يعذبها المشركون، وبخاصة مولاها

(١) ابن هشام ١/ ١٣٩، ٣٢٠، وطبقات ابن سعد ٣/ ٢٤٨، ٢٤٩... وروى الجزء الأخير العوفى عن ابن عباس، تفسير ابن كثير (المذكور). ولينظر الدر المنثور، تفسير الآية: ١٠٦، سورة النحل.

(٢) أسد الغابة ٥/ ٢٤٨، والإصابة ٧، ٨/ ١٥٢ وغيرهما.

(٣) أسد الغابة ١/ ٥٩١، ٥٩٢، وتلقيح الفهوم، ص ٦٠ وغيرهما.

(٤) طبقات ابن سعد ٨/ ٢٥٦، وابن هشام ١/ ٣١٨.

الأسود بن عبد يغوث، وكان من أشد أعداء رسول الله ﷺ، ومن المستهزئين به[١].

وأسلمت جارية عمر بن مؤمل من بنى عدى، فكان عمر بن الخطاب يعذبها - وهو يومئذ على الشرك - فكان يضربها حتى يفتر، ثم يدعها ويقول: والله ما أدعك إلا سآمة، فتقول: كذلك يفعل بك ربك[٢].

وممن أسلمن وعذبن من الجوارى: النهدية وابنتها، وكانتا لامرأة من بنى عبد الدار[٣].

وممن عذب من العبيد: عامر بن فُهَيْرَة، كان يعذب حتى يفقد وعيه ولا يدرى ما يقول[٤].

واشترى أبوبكر رضي الله عنه هؤلاء الإماء والعبيد رضي الله عنهم وعنهن أجمعين، فأعتقهم جميعًا. وقد عاتبه فى ذلك أبوه أبو قحافة وقال: أراك تعتق رقابًا ضعافًا، فلو أعتقت رجالًا جلدًا لمنعوك. قال: إنى أريد وجه الله. فأنزل الله قرآنًا مدح فيه أبا بكر، وذم أعداءه. قال تعالى:] Z) (' & % $ # " ! Ã Â Á À [الليل] وهو أمية بن خلف، ومن كان على شاكلته] * + , - . / 0 1 2 3 4 5 6 7 Z A @ ? > = < ; : 9 8 [الليل] وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه[٥].

وأوذى أبو بكر الصديق رضي الله عنه أيضًا. فقد أخذه نوفل بن خويلد العدوى، وأخذ معه طلحة ابن عبيد الله فشدهما فى حبل واحد، ليمنعهما عن الصلاة وعن الدين فلم يجيباه، فلم يروعاه إلا وهما مطلقان يصليان؛ ولذلك سميا بالقرينين، وقيل: إنما فعل ذلك عثمان بن عبيد الله أخو طلحة ابن عبيد الله رضي الله عنه[٦].

والحاصل أنهم لم يعلموا بأحد دخل فى الإسلام إلا وتصدوا له بالأذى والنكال، وكان ذلك سهلًا ميسورًا بالنسبة لضعفاء المسلمين، ولا سيما العبيد والإماء منهم، فلم يكن من يغضب لهم ويحميهم، بل كانت السادة والرؤساء هم أنفسهم يقومون بالتعذيب

---

(١) الإصابة ٧، ٨/ ٢٥٨.
(٢) ابن هشام ١/ ٣١٩، وطبقات ابن سعد ٨/ ٢٥٦.
(٣) ابن هشام ١/ ٣١٨، ٣١٩.
(٤) ابن سعد ٣/ ٢٤٨.
(٥) ابن هشام ١/ ٣١٨، ٣١٩، وطبقات ابن سعد ٨/ ٢٥٦، وكتب التفسير: الآية المذكورة.
(٦) أسد الغابة ٢/ ٤٦٨.

ويغرون الأوباش، ولكن بالنسبة لمن أسلم من الكبار والأشراف كان ذلك صعبًا جدًّا؛ إذ كانوا فى عز ومنعة من قومهم، ولذلك قلما كان يجترئ عليهم إلا أشراف قومهم، مع شىء كبير من الحيطة والحذر.

موقف المشركين من رسول الله ﷺ:

وأما بالنسبة لرسول الله ﷺ، فإنه ﷺ كان رجلًا شهمًا وقورًا ذا شخصية فذة، تتعاظمه نفوس الأعداء والأصدقاء بحيث لا يقابل مثله إلا بالإجلال والتشريف، ولا يجترئ على اقتراف الدنايا والرذائل ضده إلا أراذل الناس وسفهاؤهم، ومع ذلك كان فى منعة أبى طالب، وأبو طالب من رجال مكة المعدودين، كان معظمًا فى أصله، معظمًا بين الناس، فكان من الصعب أن يجسر أحد على إخفار ذمته واستباحة بيضته، إن هذا الوضع أقلق قريشًا وأقامهم وأقعدهم، ودعاهم إلى تفكير سليم يخرجهم من المأزق دون أن يقعوا فى محذور لا يحمد عقباه، وقد هداهم ذلك إلى أن يختاروا سبيل المفاوضات مع المسئول الأكبر: أبى طالب، ولكن مع شىء كبير من الحكمة والجدية، ومع نوع من أسلوب التحدى والتهديد الخفى حتى يذعن لما يقولون.

وفد قريش إلى أبى طالب:

قال ابن إسحاق: مشى رجال من أشراف قريش إلى أبى طالب، فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسَفَّه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلى بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه، فقال لهم أبو طالب قولًا رقيقًا وردهم ردًّا جميلًا، فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه، يظهر دين الله ويدعو إليه[1]. ولكن لم تصبر قريش طويلًا حين رأته ﷺ ماضيًا فى عمله ودعوته إلى الله، بل أكثرت ذكره وتذامرت فيه، حتى قررت مراجعة أبى طالب بأسلوب أغلظ وأقسى من السابق.

قريش يهددون أبا طالب:

وجاءت سادات قريش إلى أبى طالب فقالوا له: يا أبا طالب، إن لك سنًّا وشرفًا ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك فى ذلك، حتى

(١) ابن هشام ١/ ٢٦٥.

يهلك أحد الفريقين.

عَظُم على أبى طالب هذا الوعيد والتهديد الشديد، فبعث إلى رسول الله ﷺ وقال له: يا بن أخى، إن قومك قد جاءونى فقالوا لى كذا وكذا، فأبق علىَّ وعلى نفسك، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق، فظن رسول الله ﷺ أن عمه خاذله، وأنه ضعُف عن نصرته، فقال: **«يا عم، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر - حتى يظهره الله أو أهلك فيه - ما تركته»**، ثم استعبر وبكى، وقام، فلما ولى ناداه أبو طالب، فلما أقبل قال له: اذهب يا بن أخى، فقل ما أحببت، فو الله لا أُسْلِمُك لشىء أبدًا[(١)]، وأنشد:

والله لن يصلوا إليك بجَمْعِهِم ... حتى أُوَسَّـــدَ فـى الـتـراب دفينًا

فاصدع بأمرك ما عليك غَضَاضَة ... وابْـشِـرْ وقَـرَّ بـذاك منك عيونًا[(٢)]

وذلك فى أبيات.

قريش بين يدى أبى طالب مرة أخرى:

ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ ماض فى عمله عرفت أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ﷺ، وأنه مجمع لفراقهم وعداوتهم فى ذلك، فذهبوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة وقالوا له: يا أبا طالب، إن هذا الفتى أنْهَدَ فتى فى قريش وأجمله، فخذه فلك عقله ونصره، واتخذه ولدًا فهو لك، وأسْلِمْ إلينا ابن أخيك هذا الذى خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك، وسفه أحلامهم، فنقتله، فإنما هو رجل برجل، فقال: والله لبئس ما تسومونني، أتعطونى ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابنى تقتلونه؟ هذا والله ما لا يكون أبدًا. فقال المطعم ابن عدى بن نوفل بن عبد مناف: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكره، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئًا، فقال: والله ما أنصفتمونى، ولكنك قد أجمعت خذلانى ومظاهرة القوم علىّ، فاصنع ما بدا لك[(٣)].

ولما فشلت قريش فى هذه المفاوضات، ولم توفق فى إقناع أبى طالب بمنع رسول الله ﷺ وكفه عن الدعوة إلى الله، قررت أن يختار سبيلا قد حاولت تجنبه والابتعاد منه مخافة مغبته وما يؤول إليه، وهو سبيل الاعتداء على ذات الرسول ﷺ.

(١) ابن هشام ١/ ١٦٥، ١٦٦.
(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ١٨٨.
(٣) ابن هشام ١/ ٢٦٦، ٢٦٧.

اعتداءات على رسول الله ﷺ:

واخترقت قريش ما كانت تتعاظمه وتحترمه منذ ظهرت الدعوة على الساحة، فقد صعب على غطرستها وكبريائها أن تصبر طويلًا، فمدت يد الاعتداء إلى رسول الله ﷺ، مع ما كانت تأتيه من السخرية والاستهزاء والتشويه والتلبيس والتشويش وغير ذلك. وكان من الطبيعي أن يكون أبو لهب في مقدمتهم وعلى رأسهم، فإنه كان أحد رؤوس بني هاشم، فلم يكن يخشى ما يخشاه الآخرون، وكان عدوًّا لدودًا للإسلام وأهله، وقد وقف موقف العداء من رسول الله ﷺ منذ اليوم الأول، واعتدى عليه قبل أن تفكر فيه قريش، وقد أسلفنا ما فعل بالنبي ﷺ في مجلس بني هاشم، وما فعل على الصفا.

وكان أبو لهب قد زوج ولديه عتبة وعتيبة ببنتي رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم قبل البعثة، فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما بعنف وشدة حتى طلقاهما[١].

ولما مات عبد الله – الابن الثاني لرسول الله ﷺ – استبشر أبو لهب وذهب إلى المشركين يبشرهم بأن محمدًا صار أبتر[٢].

وقد أسلفنا أن أبا لهب كان يجول خلف النبي ﷺ في موسم الحج والأسواق لتكذيبه، وقد روى طارق بن عبد الله المحاربي ما يفيد أنه كان لا يقتصر على التكذيب بل كان يضربه بالحجر حتى يدمي عقباه[٣].

وكانت امرأة أبي لهب – أم جميل أروى بنت حرب بن أمية، أخت أبي سفيان – لا تقل عن زوجها في عداوة النبي ﷺ، فقد كانت تحمل الشوك، وتضعه في طريق النبي ﷺ وعلى بابه ليلًا، وكانت امرأة سليطة تبسط فيه لسانها، وتطيل عليه الافتراء والدس، وتؤجج نار الفتنة، وتثير حربًا شعواء على النبي ﷺ؛ ولذلك وصفها القرآن بحمالة الحطب.

ولما سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر الصديق وفي يدها فِهْرٌ (أي بمقدار ملء الكف) من حجارة، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ، فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر، أين صاحبك؟ قد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر

---

(١) روى ذلك الطبراني عن قتادة، وتفيد رواية ابن إسحاق أن رجال قريش أيضًا سعوا في ذلك، لينظر: ابن هشام ١/ ٦٥٢.

(٢) روى ذلك عن عطاء، تفسير ابن كثير: سورة الكوثر (٤/ ٥٩٥).

(٣) كنز العمال ١٢/ ٤٤٩.

فاه، أما والله إنى لشاعرة. ثم قالت:

مُذَمَّمًا عصينا * وأمره أبينا * ودينه قَلَيْنا

ثم انصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله، أما تراها رأتك؟ فقال: «**ما رأتنى، لقد أخذ الله ببصرها عنى**»[(١)].

وروى أبو بكر البزار هذه القصة، وفيها: أنها لما وقفت على أبى بكر قالت: أبا بكر، هجانا صاحبك، فقال أبو بكر: لا ورب هذه البنية، ما ينطق بالشعر ولا يتفوه به، فقالت: إنك لمُصدَّق[(٢)].

كان أبو لهب يفعل كل ذلك وهو عم رسول الله ﷺ وجاره، كان بيته ملصقا ببيته، كما كان غيره من جيران رسول الله ﷺ يؤذونه وهو فى بيته.

قال ابن إسحاق: كان النفر الذين يؤذون رسول الله ﷺ فى بيته أبا لهب، والحكم بن أبى العاص بن أمية، وعقبة بن أبى معيط، وعدى بن حمراء الثقفى، وابن الأصداء الهذلى - وكانوا جيرانه - لم يسلم منهم أحد إلا الحكم بن أبى العاص[(٣)]، فكان أحدهم يطرح عليه ﷺ رحم الشاة وهو يصلى، وكان أحدهم يطرحها فى برمته إذا نصبت له، حتى اتخذ رسول الله ﷺ حجرًا ليستتر به منهم إذا صلى، فكان رسول الله ﷺ إذا طرحوا عليه ذلك الأذى يخرج به على العود، فيقف به على بابه، ثم يقول: «**يا بنى عبد مناف، أى جوار هذا؟**» ثم يلقيه فى الطريق[(٤)].

وازداد عقبة بن أبى مُعَيْط فى شقاوته وخبثه، فقد روى البخارى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن النبى ﷺ كان يصلى عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس؛ إذ قال بعضهم لبعض: أيكم يجىء بسَلاَ جَزُور بنى فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد، فانبعث

(١) انظر: سيرة ابن هشام ١/ ٣٣٥ ، ٣٣٦، وكانت قريش يسمونه ﷺ مذمما، حقدًا وغيظا، وصرف الله بهذا شتمهم عنه، التاريخ للبخارى ١/ ١١، وصحيح البخارى مع الفتح ٧/ ١٦٢، ومسند أحمد ٢/ ٢٤٤، ٣٤٠، ٣٦٩.

(٢) وروى هذه القصة الحاكم فى المستدرك ٢/ ٣٦١، وابن أبى شيبة فى المصنف ١١/ ٤٩٨ ح ١١٨١٧، وأبو يعلى فى المسند ٤/ ٢٤٦، ح ٢٣٥٨، وأبو نعيم الأصبهانى فى دلائل النبوة، ص ٧١ ح ٥٤، والطبرانى وابن أبى حاتم وغيرهم. وفى السياق شىء خفيف من الاختلاف.

(٣) والد مروان الخليفة الأموى.

(٤) ابن هشام ١/ ٤١٦.

أشقى القوم (وهو عقبة بن أبى معيط)[١]، فجاء به فنظر، حتى إذا سجد النبى وضع على ظهره بين كتفيه، وأنا أنظر، لا أغنى شيئًا، لو كانت لى منعة، قال: فجعلوا يضحكون، ويحيل بعضهم على بعضهم (أى يتمايل بعضهم على بعض مرحًا وبطرًا)، ورسول الله ﷺ ساجد، لا يرفع رأسه، حتى جاءته فاطمة، فطرحته عن ظهره، فرفع رأسه، ثم قال: «**اللهم عليك بقريش**» ثلاث مرات، فشق ذلك عليهم إذ دعا عليهم، قال: وكانوا يرون أن الدعوة فى ذلك البلد مستجابة، ثم سمى: «**اللهم عليك بأبى جهل، وعليك بعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبى معيط**» - وعد السابع فلم نحفظه - فوالذى نفسى بيده لقد رأيت الذين عدّ رسول الله ﷺ صرعى فى القَلِيب، قليب بدر[٢].

وكان أمية بن خلف إذا رأى رسول الله ﷺ همزه ولمزه. وفيه نزل:] 2 3 4 5 6 Z [سورة الهمزة] قال ابن هشام: الهمزة: الذى يشتم الرجل علانية، ويكسر عينيه، ويغمز به. واللمزة: الذى يعيب الناس سرًّا، ويؤذيهم[٣].

أما أخوه أبى بن خلف فكان هو وعقبة بن أبى معيط متصافيين. وجلس عقبة مرة إلى النبى ﷺ وسمع منه، فلما بلغ ذلك أبيًّا أنبه وعاتبه، وطلب منه أن يتفل فى وجه رسول الله ﷺ ففعل، وأبى بن خلف نفسه فت عظمًا رميمًا ثم نفخه فى الريح نحو رسول الله ﷺ[٤].

وكان الأخنس بن شَرِيق الثقفى ممن ينال من رسول الله ﷺ، وقد وصفه القرآن بتسع صفات تدل على ما كان عليه، وهى فى قوله تعالى:] وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ Z [القلم].

وكان أبو جهل يجىء أحيانًا إلى رسول الله ﷺ يسمع منه القرآن، ثم يذهب عنه فلا يؤمن ولا يطيع، ولا يتأدب ولا يخشى، ويؤذى رسول الله ﷺ بالقول، ويصد عن سبيل الله، ثم يذهب مختالًا بما فعل، فخورًا بما ارتكب من الشر، كأن ما فعل شيئًا يذكر، وفيه نزل:] R S T U V Z [القيامة]، وكان يمنع النبى ﷺ عن الصلاة منذ أول يوم رآه يصلى فى الحرم، ومرة مر به وهو يصلى عند المقام فقال: يا محمد، ألم أنهك عن هذا؟

---

(١) صرح بذلك فى صحيح البخارى نفسه ١/ ٥٤٣.

(٢) صحيح البخارى: كتاب الوضوء، باب إذا ألقى على المصلى قذر أو جيفة ١/ ٣٧، ح (٢٤٠، ٥٢٠، ٢٩٣٤، ٣١٨٥، ٣٨٥٤، ٣٩٦٠). والسابع هو: عمارة بن الوليد، صرح به فى ح (٥٢٠).

(٣) ابن هشام ١/ ٣٥٦، ٣٥٧.

(٤) ابن هشام ١/ ٣٦١، ٣٦٢.

وتوعده، فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره، فقال: يا محمد، بأى شىء تهددنى؟ أما والله إنى لأكثر هذا الوادى ناديًا. فأنزل الله [½ ¾ ¿ À Á Â Z [العلق][(١)]. وفى رواية أن النبى ﷺ أخذ بخناقه وهزه، وهو يقول له: [a b c d e f g h i Z [القيامة] فقال عدو الله: أتوعدنى يا محمد؟ والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئًا، وإنى لأعز من مشى بين جبليها[(٢)].

ولم يكن أبو جهل ليفيق من غباوته بعد هذا الانتهار، بل ازداد شقاوة فيما بعد. أخرج مسلم عن أبى هريرة قال: قال أبو جهل: يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى، لئن رأيته لأطأن على رقبته، ولأعفرن وجهه، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلى، زعم ليطأ رقبته، فما فجأهم إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقى بيديه، فقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: إن بينى وبينه لخندقًا من نار وهولًا وأجنحةً، فقال رسول الله ﷺ: «**لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا**»[(٣)].

هذه صورة مصغرة جدًّا لما كان يتلقاه رسول الله ﷺ والمسلمون من الظلم والخسف والجور على أيدى طغاة المشركين، الذين كانوا يزعمون أنهم أهل الله وسكان حرمه.

وكان من مقتضيات هذه الظروف المتأزمة أن يختار رسول الله ﷺ موقفًا حازمًا ينقذ به المسلمين عما دهمهم من البلاء، ويخفف وطأته بقدر المستطاع، وقد اتخذ رسول الله ﷺ خطوتين حكيمتين كان لهما أثرهما فى تسيير الدعوة وتحقيق الهدف، وهما:

١ - اختيار دار الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى مركزا للدعوة ومقرًّا للتربية.

٢- أمر المسلمين بالهجرة إلى الحبشة.

دار الأرقم:

كانت هذه الدار فى أصل الصفا، بعيدة عن أعين الطغاة ومجالسهم، فاختارها رسول الله ﷺ ليجتمع فيها بالمسلمين سرًّا، فيتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة؛ وليؤدى المسلمون عبادتهم وأعمالهم، ويتلقوا ما أنزل الله على رسوله

(١) رواه ابن جرير فى التفسير، وروى نحوه الترمذى: التفسير، من سورة اقرأ ٥/ ٤١٤ ح (٣٣٤٩) وغيره.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٤٧٧، والدر المنثور ٦/ ٤٧٨ وغيرهما.

(٣) صحيح مسلم: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٤/ ٢١٥٤) ح (٣٨).

وهم فى أمن وسلام، وليدخل من يدخل فى الإسلام ولا يعلم به الطغاة من أصحاب السطوة والنقمة.

ومما لم يكن يشك فيه أن رسول الله ﷺ لو اجتمع بالمسلمين علنا لحاول المشركون بكل ما عندهم من القسوة والغلظة أن يحولوا بينه وبين ما يريد من تزكية نفوسهم ومن تعليمهم الكتاب والحكمة، وربما أفضى ذلك إلى مصادمة الفريقين، بل قد وقع ذلك فعلًا. فقد ذكر ابن إسحاق أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يجتمعون فى الشعاب، فيصلون فيها سرًّا، فرآهم نفر من كفار قريش، فسبوهم وقاتلوهم، فضرب سعد بن أبى وقاص رجلًا فسال دمه، وكان أول دم هريق فى الإسلام[(١)].

ومعلوم أن المصادمة لو تعددت وطالت لأفضت إلى تدمير المسلمين وإبادتهم، فكان من الحكمة السريةُ والاختفاء، فكان عامة الصحابة يُخْفُون إسلامهم وعبادتهم واجتماعهم، أما رسول الله ﷺ فكان يجهر بالدعوة والعبادة بين ظهرانى المشركين، لا يصرفه عن ذلك شىء، ولكن كان يجتمع مع المسلمين سرًّا؛ نظرًا لصالحهم وصالح الإسلام.

الهجرة الأولى إلى الحبشة:

كانت بداية الاعتداءات فى أواسط أو أواخر السنة الرابعة من النبوة، بدأت ضعيفة، ثم لم تزل تشتد يومًا فيومًا وشهرًا فشهرا، حتى تفاقمت فى أواسط السنة الخامسة، ونبا بهم المقام فى مكة، وأخذوا يفكرون فى حيلة تنجيهم من هذا العذاب الأليم، وفى هذه الظروف نزلت سورة الزمر تشير إلى اتخاذ سبيل الهجرة، وتعلن بأن أرض الله ليست بضيقة [Ú Ù Û Ü Ý Þ ß à á â ã ä å æ ç è é ê ë Z] [الزمر].

وكان رسول الله ﷺ قد علم أن أصْحَمَة النجاشى ملك الحبشة ملك عادل، لا يظلم عنده أحد، فأمر المسلمين أن يهاجروا إلى الحبشة فرارًا بدينهم من الفتن[(٢)].

وفى رجب سنة خمس من النبوة هاجر أول فوج من الصحابة إلى الحبشة. كان مكونًا من اثنى عشر رجلًا وأربع نسوة، رئيسهم عثمان بن عفان، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وقد قال النبى ﷺ فيهما: «**إنهما أول بيت هاجر فى سبيل الله بعد إبراهيم**

(١) ابن هشام ١/ ٢٦٣.

(٢) انظر: السنن الكبرى للبيهقى ٩/ ٩.

ولوط عليهما السلام»[١].

كان رحيل هؤلاء تسللًا فى ظلمة الليل - حتى لا تفطن لهم قريش - خرجوا إلى البحر ويمموا ميناء شعيبة، وقيضت لهم الأقدار سفينتين تجاريتين أبحرتا بهم إلى الحبشة، وفطنت لهم قريش، فخرجت فى آثارهم، لكن لما بلغت إلى الشاطئ كانوا قد انطلقوا آمنين، وأقام المسلمون فى الحبشة فى أحسن جوار[٢].

سجود المشركين مع المسلمين وعودة المهاجرين:

وفى رمضان من نفس السنة خرج النبى ﷺ إلى الحرم، وفيه جمع كبير من قريش، فيهم ساداتهم وكبراؤهم، فقام فيهم، وفاجأهم بتلاوة سورة النجم، ولم يكن أولئك الكفار سمعوا كلام الله من قبل؛ لأنهم كانوا مستمرين على ما تواصى به بعضهم بعضًا،من قولهم:] لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ Z [فصلت] فلما باغتهم بتلاوة هذه السورة، وقرع آذانهم كلام إلهى خلاب، وكان أروع كلام سمعوه قط، أخذ مشاعرهم، ونسوا ما كانوا فيه فما من أحد إلا وهو مصغ إليه، لا يخطر بباله شىء سواه، حتى إذا تلا فى خواتيم هذه السورة قوارع تطير لها القلوب، ثم قرأ:] w x y s Z [النجم] ثم سجد، لم يتمالك أحد نفسه حتى خر ساجدًا. وفى الحقيقة كانت روعة الحق قد صدعت العناد فى نفوس المستكبرين والمستهزئين، فما تمالكوا أن يخروا لله ساجدين[٣].

وسَقَطَ فى أيديهم لما أحسوا أن جلال كلام الله لَوَّى زمامهم، فارتكبوا عين ما كانوا يبذلون قصارى جهدهم فى محوه وإفنائه، وقد توالى عليهم اللوم والعتاب من كل جانب، ممن لم يحضر هذا المشهد من المشركين، وعند ذلك كذبوا على رسول الله ﷺ وافتروا عليه أنه عطف على أصنامهم بكلمة تقدير، وأنه قال عنها ما كانوا يرددونه هم دائما من قولهم: «تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهم لترتجى»، جاءوا بهذا الإفك المبين ليعتذروا عن سجودهم مع النبى ﷺ، وليس يستغرب هذا من قوم كانوا يألفون الكذب، ويطيلون الدس والافتراء.

(١، ٢) زاد المعاد ١/ ٢٤.

(٣) روى البخارى قصة السجود مختصرًا عن ابن مسعود وابن عباس، انظر: باب سجدة النجم، وباب سجود المسلمين والمشركين ١/ ١٤٦، وباب ما لقى النبى ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة ١/ ٥٤٣.

وبلغ هذا الخبر إلى مهاجرى الحبشة، ولكن فى صورة تختلف تمامًا عن صورته الحقيقية، بلغهم أن قريشًا أسلمت، فرجعوا إلى مكة فى شوال من نفس السنة، فلما كانوا دون مكة ساعة من نهار وعرفوا جلية الأمر، رجع منهم من رجع إلى الحبشة، ولم يدخل فى مكة من سائرهم أحد إلا مستخفيًا، أو فى جوار رجل من قريش[١].

ثم اشتد عليهم وعلى المسلمين البلاء والعذاب من قريش، وسطت بهم عشائرهم، فقد كان صعب على قريش ما بلغها عن النجاشى من حسن الجوار، ولم ير رسول الله ﷺ بدا من أن يشير على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة مرة أخرى.

الهجرة الثانية إلى الحبشة:

واستعد المسلمون للهجرة مرة أخرى، وعلى نطاق أوسع، ولكن كانت هذه الهجرة الثانية أشق من سابقتها، فقد تيقظت لها قريش وقررت إحباطها، بيد أن المسلمين كانوا أسرع، ويسر الله لهم السفر، فانحازوا إلى نجاشى الحبشة قبل أن يدركوا.

وفى هذه المرة هاجر من الرجال ثلاثة وثمانون رجلًا إن كان فيهم عمار، فإنه يشك فيه، وثمانى عشرة أوتسع عشرة امرأة[٢].

مكيدة قريش بمهاجرى الحبشة:

عز على المشركين أن يجد المهاجرون مأمنا لأنفسهم ودينهم، فاختاروا رجلين جلدين لبيبين، وهما: عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبى ربيعة - قبل أن يسلما - وأرسلوا معهما الهدايا المستطرفة للنجاشى ولبطارقته، وبعد أن ساق الرجلان تلك الهدايا إلى البطارقة، وزوداهم بالحجج التى يطرد بها أولئك المسلمون، وبعد أن اتفقت البطارقة أن يشيروا على النجاشى بإقصائهم، حضرا إلى النجاشى، وقدما له الهديا ثم كلماه فقالا له:

أيها الملك، إنه قد ضَوَى إلى بلدك غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا فى دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم؛ لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه.

وقالت البطارقة: صدقا أيها الملك، فأسلمهم إليهما، فليرداهم إلى قومهم وبلادهم.

---

(١) ابن هشام ١/ ٣٦٤، وزاد المعاد ١/ ٢٤، ٢/ ٤٤.

(٢) انظر: زاد المعاد ١/ ٢٤.

ولكن رأى النجاشى أنه لا بد من تمحيص القضية، وسماع أطرافها جميعًا. فأرسل إلى المسلمين، ودعاهم، فحضروا، وكانوا قد أجمعوا على الصدق كائنًا ما كان. فقال لهم النجاشى: ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به فى دينى ولا دين أحد من هذه الملل؟

قال جعفر بن أبى طالب - وكان هو المتكلم عن المسلمين: أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية؛ نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسىء الجوار، ويأكل منا القوى الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم،وقذف المحصنات،وأمرنا أن نعبد الله وحده،لا نشرك به شيئًا،وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام - فعدد عليه أمور الإسلام - فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاءنا به من دين الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئًا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا فى جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك.

فقال له النجاشى: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم. فقال له النجاشى: فاقرأه على، فقرأ عليه صدرًا من:] ! " Z [مريم] فبكى والله النجاشى حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخْضَلُوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم النجاشى: إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يكادون - يخاطب عمرو بن العاص وصاحبه - فخرجا، فلما خرجا قال عمرو بن العاص لعبد الله ابن أبى ربيعة: والله لآتينه غدًا عنهم بما أستأصل به خضراءهم. فقال له عبد الله بن أبى ربيعة: لا تفعل، فإن لهم أرحامًا وإن كانوا قد خالفونا، ولكن أصر عمرو على رأيه.

فلما كان الغد قال للنجاشى: أيها الملك، إنهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولًا عظيمًا، فأرسل إليهم النجاشى يسألهم عن قولهم فى المسيح ففزعوا، ولكن أجمعوا على الصدق، كائنًا ما كان، فلما دخلوا عليه وسألهم، قال له جعفر: نقول فيه الذى جاءنا به نبينا ﷺ: هو

عبد الله ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البَتُول.

فأخذ النجاشي عودًا من الأرض ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود، فتناخرت بطارقته، **فقال:** وإن نَخَرْتُم والله.

ثم قال للمسلمين: اذهبوا فأنتم شُيُومٌ بأرضي - والشيوم: الآمنون بلسان الحبشة - من سَبَّكم غَرِم، من سبكم غرم، من سبكم غرم، ما أحب أن لي دَبْرًا من ذهب وإني آذيت رجلًا منكم- والدبر: الجبل بلسان الحبشة.

ثم قال لحاشيته: ردّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه.

قالت أم سلمة التي تروى هذه القصة: فخرجا من عنده مقبوحين مردودًا عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار[(١)].

هذه رواية ابن إسحاق، وذكر غيره أن وفادة عمرو بن العاص إلى النجاشي كانت بعد بدر، وجمع بعضهم بأن الوفادة كانت مرتين. ولكن الأسئلة والأجوبة التي ذكروا أنها دارت بين النجاشي وبين جعفر بن أبي طالب في الوفادة الثانية هي نفس الأسئلة والأجوبة التي ذكرها ابن إسحاق هنا، ثم إن تلك الأسئلة تدل بفحواها أنها كانت في أول مرافعة قدمت إلى النجاشي.

الشدة في التعذيب ومحاولة القضاء على رسول الله ﷺ:

ولما أخفق المشركون في مكيدتهم، وفشلوا في استرداد المهاجرين استشاطوا غضبًا، وكادوا يتميزون غيظًا، فاشتدت ضراوتهم وانقضوا على بقية المسلمين، ومدوا أيديهم إلى رسول الله ﷺ بالسوء، وظهرت منهم تصرفات تدل على أنهم أرادوا القضاء على رسول الله ﷺ؛ ليستأصلوا جذور الفتنة التي أقضت مضاجعهم، حسب زعمهم.

أما بالنسبة للمسلمين فإن الباقين منهم في مكة كانوا قليلين جدًّا، وكانوا إما ذوي شرف ومنعة، أو محتمين بجوار أحد، ومع ذلك كانوا يخفون إسلامهم ويبتعدون عن أعين الطغاة بقدر الإمكان، ولكنهم مع هذه الحيطة والحذر لم يسلموا كل السلامة من الأذى والخسف والجور.

وأما رسول الله ﷺ، فقد كان يصلي ويعبد الله أمام أعين الطغاة، ويدعو إلى الله سرًّا

(١) ابن هشام ملخصًا ١/ ٣٣٤-٣٣٨.

وجهرًا لا يمنعه عن ذلك مانع، ولا يصرفه عنه شيء؛ إذ كان ذلك من جملة تبليغ رسالة الله منذ أمره الله سبحانه وتعالى بقوله:] . / 0 1 2 3 4 Z [الحجر]، وبذلك كان يمكن للمشركين أن يتعرضوا له إذا أرادوا، ولم يكن فى الظاهر ما يحول بينهم وبين ما يريدون إلا ما كان له ﷺ من الحشمة والوقار، وما كان لأبى طالب من الذمة والاحترام، وما كانوا يخافونه من مغبة سوء تصرفاتهم، ومن اجتماع بنى هاشم عليهم، إلا أن كل ذلك لم يعد له أثره المطلوب فى نفوسهم؛ إذ بدءوا يستخفون به منذ شعروا بانهيار كيانهم الوثنى وزعامتهم الدينية أمام دعوته ﷺ.

ومما روت لنا كتب السنة والسيرة من الأحداث التى تشهد القرائن بأنها وقعت فى هذه الفترة: أن عتيبة بن أبى لهب أتى يومًا رسول الله ﷺ فقال: أنا أكفر بـ] ! " # $ Z [النجم] وبالذى] C B D E Z [النجم] ثم تسلط عليه بالأذى، وشق قميصه، وتفل فى وجهه ﷺ، إلا أن البزاق لم يقع عليه، وحينئذ دعا عليه النبى ﷺ وقال: «**اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك**»، وقد استجيب دعاؤه ﷺ، فقد خرج عتيبة إثر ذلك فى نفر من قريش، فلما نزلوا بالزرقاء من الشام طاف بهم الأسد تلك الليلة، فجعل عتيبة يقول: يا ويل أخى هو والله آكلى كما دعا محمد علىّ، قتلنى وهو بمكة، وأنا بالشام، ثم جعلوه بينهم، وناموا من حوله، ولكن جاء الأسد وتخطاهم إليه، فضغم رأسه[(١)].

ومنها: ما ذكر أن عقبة بن أبى مُعَيْط وطئ على رقبته الشريفة وهو ساجد حتى كادت عيناه تبرزان[(٢)].

ومما يدل على أن طغاتهم كانوا يريدون قتله ﷺ ما رواه ابن إسحاق عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: حضرتهم وقد اجتمعوا فى الحجر، فذكروا رسول الله ﷺ، فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل، لقد صبرنا منه على أمر عظيم، فبينا هم كذلك إذ طلع رسول الله ﷺ، فأقبل يمشى حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفًا بالبيت فغمزوه ببعض القول، فعرفت ذلك فى وجه رسول الله ﷺ، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك فى وجهه، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها. فوقف ثم قال: «**أتسمعون يا معشر قريش، أما والذى نفسى بيده، لقد جئتكم بالذبح**»، فأخذت القوم كلمته، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع، حتى إن أشدهم فيه ليرفؤه بأحسن ما يجد،

(١) دلائل النبوة ٢/ ٥٨٥، ومختصر السيرة للشيخ عبد الله النجدى، ص ١٣٥.
(٢) مختصر السيرة، ص ١١٣.

ويقول: انصرف يا أبا القاسم، فو الله ما كنت جهولًا.

فلما كان الغد، اجتمعوا كذلك يذكرون أمره إذ طلع عليهم، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به، فلقد رأيت رجلًا منهم أخذ بمجمع ردائه، وقام أبو بكر دونه، وهو يبكي ويقول: أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله؟ ثم انصرفوا عنه، قال ابن عمرو: فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشًا نالوا منه قط[١]. انتهى ملخصًا.

وفي رواية البخاري عن عروة بن الزبير قال: سألت ابن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ، قال: بينا النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقًا شديدًا؛ فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه، ودفعه عن النبي ﷺ، وقال: أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله؟[٢].

وفي حديث أسماء: فأتى الصريخ إلى أبي بكر فقال: أدرك صاحبك، فخرج من عندنا وعليه غدائر أربع، فخرج وهو يقول: أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله؟ فلهوا عنه وأقبلوا على أبي بكر، فرجع إلينا لا نمس شيئًا من غدائره إلا رجع معنا[٣].

إسلام حمزة رضي الله عنه:

خلال هذا الجو الملبد بغيوم الظلم والعدوان ظهر برق أضاء الطريق، وهو إسلام حمزة ابن عبد المطلب رضي الله عنه، أسلم في أواخر السنة السادسة من النبوة، والأغلب أنه أسلم في شهر ذي الحجة.

وسبب إسلامه: أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ يومًا عند الصفا فآذاه ونال منه، ورسول الله ﷺ ساكت لا يكلمه، ثم ضربه أبو جهل بحجر في رأسه فَشَجَّهُ حتى نزف منه الدم، ثم انصرف عنه إلى نادي قريش عند الكعبة، فجلس معهم، وكانت مولاة لعبد الله بن جُدْعَان في مسكن لها على الصفا ترى ذلك، وأقبل حمزة من القَنَص مُتَوَشِّحًا قوسه، فأخبرته المولاة بما رأت من أبي جهل، فغضب حمزة - وكان أعز فتى في قريش وأشده شكيمة - فخرج يسعى، لم يقف لأحد؛ معدًّا لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به، فلما دخل المسجد قام على رأسه، وقال له: يا مُصَفِّرَ اسْتَه، تشتم ابن أخي وأنا على دينه؟ ثم ضربه

---

(١) ابن هشام ١ / ٢٨٩، ٢٩٠.

(٢) صحيح البخاري: باب ذكر ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة ١/ ٥٤٤.

(٣) مختصر السيرة للشيخ عبد الله النجدي، ص ١١٣.

بالقوس فشجه شجة منكرة، فثار رجال من بنى مخزوم - حى أبى جهل - وثار بنو هاشم - حى حمزة - فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإنى سببت ابن أخيه سبًّا قبيحًا[(١)].

وكان إسلام حمزة أول الأمر أنفة رجل، أبى أن يهان مولاه، ثم شرح الله صدره فاستمسك بالعروة الوثقى، واعتز به المسلمون أيما اعتزاز.

إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

وخلال هذا الجو الملبد بغيوم الظلم والعدوان أضاء برق آخر أشد بريقًا وإضاءة من الأول، ألا وهو إسلام عمر بن الخطاب، أسلم فى ذى الحجة سنة ست من النبوة[(٢)]. بعد ثلاثة أيام من إسلام حمزة رضي الله عنه، وكان النبى ﷺ قد دعا الله تعالى لإسلامه. فقد أخرج الترمذى عن ابن عمر، وصححه، وأخرج الطبرانى عن ابن مسعود وأنس أن النبى ﷺ قال: «**اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك: بعمر بن الخطاب أو بأبى جهل بن هشام**» فكان أحبهما إلى الله عمر رضي الله عنه[(٣)].

وبعد إدارة النظر فى جميع الروايات التى رويت فى إسلامه، يبدو أن نزول الإسلام فى قلبه كان تدريجيًّا، ولكن قبل أن نسوق خلاصتها نرى أن نشير إلى ما كان يتمتع به رضي الله عنه من العواطف والمشاعر.

كان رضي الله عنه معروفًا بحدة الطبع وقوة الشكيمة، وطالما لقى المسلمون منه ألوان الأذى، والظاهر أنه كانت تصطرع فى نفسه مشاعر متناقضة؛ احترامه للتقاليد التى سنها الآباء والأجداد وتحمسه لها، ثم إعجابه بصلابة المسلمين، وباحتمالهم البلاء فى سبيل العقيدة، ثم الشكوك التى كانت تساوره - كأى عاقل - فى أن ما يدعو إليه الإسلام قد يكون أجل وأزكى من غيره، ولهذا ما إن يَثُور حتى يَخُور.

وخلاصة الروايات - مع الجمع بينها - فى إسلامه رضي الله عنه: أنه التجأ ليلة إلى المبيت خارج بيته، فجاء إلى الحرم، ودخل فى ستر الكعبة، والنبى ﷺ قائم يصلى، وقد استفتح سورة]الْحَاقَّةُ[، فجعل عمر يستمع إلى القرآن، ويعجب من تأليفه، قال: فقلت - أى فى نفسى: هذا والله شاعر، كما قالت قريش، قال: فقرأ] ; < = > ? @A B C[

(١) ابن هشام ملخصًا ١ / ٢٩١، ٢٩٢. ومصفر استه: أى ضَرَّاط.

(٢) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى، ص ١١.

(٣) الترمذى: أبواب المناقب، مناقب عمر بن الخطاب ٥/ ٧٦، ح (٣٦٨١).

SRQ P ONMLK J I [Z H GFE [الحاقة] قال: قلت: كاهن. قال: Z U T إلى آخر السورة [الحاقة]. قال: فوقع الإسلام فى قلبى[(١)].

كان هذا أول وقوع نواة الإسلام فى قلبه، لكن كانت قشرة النزعات الجاهلية، وعصبية التقليد، والتعاظم بدين الآباء هى غالبة على مخ الحقيقة التى كان يتهمس بها قلبه، فبقى مجدًّا فى عمله ضد الإسلام، غير مكترث بالشعور الذى يكمن وراء هذه القشرة.

وكان من حدة طبعه وفرط عداوته لرسول الله ﷺ أنه خرج يومًا متوشحًا سيفه يريد القضاء على النبى ﷺ، فلقيه نعيم بن عبد الله النحام العدوى[(٢)]، ورجل من بنى زهرة[(٣)]، أو رجل من بنى مخزوم[(٤)]، فقال: أين تعمد يا عمر؟ قال: أريد أن أقتل محمدًا. قال: كيف تأمن من بنى هاشم ومن بنى زهرة وقد قتلت محمدًا؟ فقال له عمر: ما أراك إلا قد صبوت، وتركت دينك الذى كنت عليه، قال: أفلا أدلك على العجب يا عمر ! إن أختك وخَتَنَكَ قد صبوا، وتركا دينك الذى أنت عليه، فمشى عمر دامرًا[(٥)] حتى أتاهما، وعندهما خباب ابن الأرت، معه صحيفة فيها: (طه) يقرئهما إياها - وكان يختلف إليهما ويقرئهما القرآن - فلما سمع خباب حس عمر توارى فى البيت، وسترت فاطمة - أخت عمر - الصحيفة. وكان قد سمع عمر حين دنا من البيت قراءة خباب إليهما، فلما دخل عليهما قال: ما هذه الهينمة التى سمعتها عندكم؟ فقالا: ما عدا حديثًا تحدثناه بيننا. قال: فلعلكما قد صبوتما. فقال له ختنه: يا عمر، أرأيت إن كان الحق فى غير دينك؟ فوثب عمر على ختنه فوطئه وطأ شديدًا. فجاءت أخته فرفعته عن زوجها، فنفحها نفحة بيده، فدمى وجهها - وفى رواية ابن إسحاق أنه ضربها فشجها - فقالت، وهى غضبى: يا عمر، إن كان الحق فى غير دينك، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله.

فلما يئس عمر، ورأى ما بأخته من الدم ندم واستحيا، وقال: أعطونى هذا الكتاب

---

(١) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى، ص ٦، ويقرب من هذا ما رواه ابن إسحاق عن عطاء ومجاهد، لكن فى آخره ما يخالف ذلك. انظر: ابن هشام ١ / ٣٤٦- ٣٤٨، ويقرب من هذا أيضا ما أورده ابن الجوزى عن جابر، وفى آخره أيضا ما يخالف هذه الرواية. انظر: تاريخ عمر بن الخطاب، ص ٩، ١٠.

(٢) وهذا على رواية ابن إسحاق. انظر: ابن هشام ١ / ٣٤٤.

(٣) روى ذلك أنس بن مالك رضي الله عنه. انظر: تاريخ عمر بن الخطاب، ص ١٠.

(٤) روى ذلك ابن عباس. انظر: مختصر السيرة للشيخ عبد الله، ص ١٠٢.

(٥) أى: فى وجهه الشر.

الذى عندكم فأقرؤه، فقالت أخته: إنك رجس، ولا يمسه إلا المطهرون، فقم فاغتسل، فقام فاغتسل، ثم أخذ الكتاب، فقرأ:] ! " # $ Z فقال: أسماء طيبة طاهرة. ثم قرأ] E Z حتى انتهى إلى قوله:] إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ Z [طه] فقال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه؟ دلونى على محمد.

فلما سمع خباب قول عمر خرج من البيت، فقال: أبشر يا عمر، فإنى أرجو أن تكون دعوة الرسول ﷺ لك ليلة الخميس: «**اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بأبى جهل ابن هشام**»، ورسول الله ﷺ فى الدار التى فى أصل الصفا.

فأخذ عمر سيفه، فتوشحه، ثم انطلق حتى أتى الدار، فضرب الباب، فقام رجل ينظر من خلل الباب، فرآه متوشحًا السيف، فأخبر رسول الله ﷺ، واستجمع القوم، فقال لهم حمزة: ما لكم؟ قالوا: عمر؟ فقال: وعمر؟ افتحوا له الباب، فإن كان جاء يريد خيرًا بذلناه له، وإن كان جاء يريد شرًّا قتلناه بسيفه، ورسول الله ﷺ داخل يوحى إليه، فخرج إلى عمر حتى لقيه فى الحجرة، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف، ثم جبذه جبذة شديدة فقال: «**أما أنت منتهيًا يا عمر حتى ينزل الله بك من الخزى والنكال ما نزل بالوليد بن المغيرة؟ اللهم، هذا عمر بن الخطاب، اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب**»، فقال عمر: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله. وأسلم، فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد[(١)].

كان عمر رضي الله عنه ذا شكيمة لا يرام، وقد أثار إسلامه ضجة بين المشركين، وشعورا لهم بالذلة والهوان، وكسا المسلمين عزة وشرفًا وسرورًا.

روى ابن إسحاق بسنده عن عمر قال: لما أسلمت تذكرت أى أهل مكة أشد لرسول الله ﷺ عداوة، قال: قلت: أبو جهل، فأتيت حتى ضربت عليه بابه، فخرج إلىّ، وقال: أهلًا وسهلًا، ما جاء بك؟ قال: جئت لأخبرك أنى قد آمنت بالله وبرسوله محمد، وصدقت بما جاء به. قال: فضرب الباب فى وجهى، وقال: قبحك الله، وقبح ما جئت به[(٢)].

وذكر ابن الجوزى أن عمر رضي الله عنه قال: كان الرجل إذا أسلم تعلق به الرجال، فيضربونه ويضربهم، فجئت - أى حين أسلمت - إلى خالى - وهو العاصى بن هاشم - فأعلمته فدخل البيت، قال: وذهبت إلى رجل من كبراء قريش - لعله أبو جهل - فأعلمته فدخل البيت[(٣)].

(١) تاريخ عمر بن الخطاب ص ٧، ١٠، ١١، وابن هشام ١ / ٣٤٣ - ٣٤٦.
(٢) ابن هشام ١ / ٣٤٩، ٣٥٠.
(٣) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى، ص ٨.

وفى رواية لابن إسحاق، عن نافع، عن ابن عمر قال: لما أسلم عمر بن الخطاب لم تعلم قريش بإسلامه، فقال: أىّ أهل مكة أنشأ للحديث؟ فقالوا: جميل بن معمر الجمحى. فخرج إليه وأنا معه، أعقل ما أرى وأسمع، فأتاه، فقال: ياجميل، إنى قد أسلمت، قال: فو الله ما رد عليه كلمة حتى قام عامدًا إلى المسجد فنادى [بأعلى صوته] أن: يا قريش، إن ابن الخطاب قد صبأ. فقال عمر - وهو خلفه: كذب، ولكنى قد أسلمت [وآمنت بالله وصدقت رسوله]، فثاروا إليه فما زال يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رءوسهم، وطَلَح - أى أعيا - عمر، فقعد، وقاموا على رأسه، وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا[(١)].

وبعد ذلك زحف المشركون إلى بيته يريدون قتله. روى البخارى عن عبد الله بن عمر قال: بينما هو - أى عمر - فى الدار خائفًا إذ جاءه العاص بن وائل السهمى أبو عمرو،وعليه حلة حبرة وقميص مكفوف بحرير - وهو من بنى سهم، وهم حلفاؤنا فى الجاهلية - فقال له: ما لك؟ قال: زعم قومك أنهم سيقتلونى إن أسلمت، قال: لا سبيل إليك - بعد أن قالها أمنت - فخرج العاص، فلقى الناس قد سال بهم الوادى، فقال: أين تريدون؟ فقالوا: هذا ابن الخطاب الذى قد صبأ، قال: لا سبيل إليه، فَكَرَّ الناس[(٢)]. وفى لفظ فى رواية ابن إسحاق: والله، لكأنما كانوا ثوبًا كُشِطَ عنه[(٣)].

هذا بالنسبة إلى المشركين، أما بالنسبة إلى المسلمين فروى مجاهد عن ابن عباس قال: سألت عمر بن الخطاب: لأى شىء سميت الفاروق؟ قال: أسلم حمزة قبلى بثلاثة أيام - ثم قص عليه قصة إسلامه. وقال فى آخره: قلت - أى حين أسلمت: يا رسول الله، ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ قال: «**بلى، والذى نفسى بيده، إنكم على الحق وإن متم وإن حييتم**»، قال: قلت: ففيم الاختفاء؟ والذى بعثك بالحق لنخرجن، فأخرجناه فى صفين، حمزة فى أحدهما، وأنا فى الآخر، له كديد ككديد الطحين، حتى دخلنا المسجد، قال: فنظرت إلىّ قريش وإلى حمزة، فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها، فسمانى رسول الله ﷺ «الفاروق» يومئذ[(٤)].

---

(١) ابن حبان (الإحسان) ٩ / ١٦، وابن هشام ١ / ٣٤٨، ٣٤٩، وتاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى، ص ٨، ونحوه فى المعجم الأوسط للطبرانى ٢ / ١٧٢، ح (١٣١٥).

(٢) صحيح البخارى، باب إسلام عمر بن الخطاب ١/ ٥٤٥.

(٣) ابن هشام ١/ ٣٤٩.

(٤) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى، ص ٦، ٧.

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: ما كنا نقدر أن نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر[١].

وعن صهيب بن سنان الرومى رضي الله عنه قال: لما أسلم عمر ظهر الإسلام، ودعى إليه علانية، وجلسنا حول البيت حلقًا، وطفنا بالبيت، وانتصفنا ممن غلظ علينا، ورددنا عليه بعض ما يأتى به[٢].

وعن عبد الله بن مسعود قال: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر[٣].

ممثل قريش بين يدى الرسول ﷺ:

وبعد إسلام هذين البطلين الجليلين - حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما -أخذت السحائب تتقشع، وأفاق المشركون عن سكرهم فى تنكيلهم بالمسلمين، وغيروا تفكيرهم فى معاملتهم مع النبى ﷺ والمؤمنين، واختاروا أسلوب المساومات وتقديم الرغائب والمغريات، ولم يدر هؤلاء المساكين أن كل ما تطلع عليه الشمس لا يساوى جناح بعوضة أمام دين الله والدعوة إليه، فخابوا وفشلوا فيما أرادوا.

قال ابن إسحاق: حدثنى يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظى قال: حدثت أن عتبة ابن ربيعة، وكان سيدًا، قال يومًا - وهو فى نادى قريش، ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورًا لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه ، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يكثرون ويزيدون، فقالوا: بلى، يا أبا الوليد، قم إليه، فكلمه، فقام إليه عتبة،حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: يابن أخى، إنك منا حيث قد علمت من السِّطَةِ فى العشيرة، والمكان فى النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع منى أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. قال: فقال رسول ﷺ: «**قل يا أبا الوليد أسمع**».

قال: يابن أخى، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد به شرفًا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيًا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على

(١) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى، ص ١٠٣.
(٢) تاريخ عمر بن الخطاب لا بن الجوزى، ص ١٣.
(٣) صحيح البخارى: باب إسلام عمر بن الخطاب ١/ ٥٤٥.

الرجل حتى يداوى منه - أو كما قال له - حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: «أقد فرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم، قال: «فاسمع منى»، قال: أفعل، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم] ! " # $ % & ' ( ) * + , - Z > = < ; : 9 8 7 6 5 4 3 2 1 0 / . [فصلت: ١: ٥]. ثم مضى رسول الله فيها، يقرؤها عليه. فلما سمعها منه عتبة أنصت له، وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما، يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك».

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائى أنى سمعت قولًا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعونى واجعلوها بى، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيى فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.

وفى روايات أخرى: أن عتبة استمع حتى إذا بلغ الرسول ﷺ قوله تعالى:] 7 8 9 : ; < = > ? @ Z [فصلت] قال: حسبك، حسبك، ووضع يده على فم رسول الله ﷺ، وناشده بالرحم أن يكف، وذلك مخافة أن يقع النذير، ثم قام إلى القوم فقال ما قال.

رؤساء قريش يفاوضون رسول الله ﷺ:

وكأن رجاء قريش لم ينقطع بما أجاب به النبى ﷺ عتبة على اقتراحاته؛ لأنه لم يكن صريحًا فى الرفض أو القبول، بل تلا عليه النبى ﷺ آيات لم يفهمها عتبة، ورجع من حيث جاء، فتشاور رؤساء قريش فيما بينهم وفكروا فى كل جوانب القضية، ودرسوا كل المواقف بروية وتريث، ثم اجتمعوا يومًا عند ظهر الكعبة بعد غروب الشمس، وأرسلوا إلى النبى ﷺ يدعونه، فجاء مسرعًا يرجو خيرًا، فلما جلس إليهم قالوا له مثل ما قال عتبة، وعرضوا عليه نفس المطالب التى عرضها عتبة. وكأنهم ظنوا أنه لم يثق بجدية هذا العرض حين عرض عتبة وحده، فإذا عرضوا هم أجمعون يثق ويقبل، ولكن قال لهم رسول الله ﷺ: «ما بى ما تَقُولُون، ما جِئْتُكُم بما جِئْتُكُم بِهِ أَطْلُب أَمْوَالكُم ولا الشَّرف فيكم، ولا المُلْكَ

عليكم، ولكنّ الله بَعَثَنِى إِلَيْكُم رَسُولًا، وَ أَنْزَلَ علىَّ كِتابًا، وأَمَرَنِى أَنْ أَكُونَ لَكُم بَشِيرًا وَنَذِيرًا، فَبَلَّغْتُكُم رِسَالاتِ ربى، وَنَصَحْتُ لَكُمْ، فإِنْ تَقْبَلُوا مِنّى ما جِئْتُكُم بِهِ فَهُوَ حَظُّكُم فى الدُنيا والآخرة، وإِنْ تَرُدُّوا علىّ أَصْبِرِ لأمْرِ اللهِ حتّى يَحْكُم اللهُ بَيْنِى وَ بَيْنَكُم». أو كما قال.

فانتقلوا إلى نقطة أخرى، وطلبوا منه أن يسأل ربه أن يسير عنهم الجبال، ويبسط لهم البلاد، ويفجر فيها الأنهار، ويحيى لهم الموتى - ولا سيما قصى بن كلاب - فإن صدقوه يؤمنون به. فأجاب بنفس ما سبق من الجواب.

فانتقلوا إلى نقطة ثالثة، وطلبوا منه أن يسأل ربه أن يبعث له ملكًا يصدقه، ويراجعونه فيه، وأن يجعل له جنات وكنوزًا وقصورًا من ذهب وفضة، فأجابهم بنفس الجواب.

فانتقلوا إلى نقطة رابعة، وطلبوا منه العذاب: أن يسقط عليهم السماء كسفًا، كما يقول ويتوعد، فقال: «**ذلك إلى الله، إن شاء فعل**». فقالوا: أما علم ربك أنا سنجلس معك، ونسألك ونطلب منك، حتى يعلمك ما تراجعنا به، وما هو صانع بنا إذا لم نقبل.

وأخيرًا هددوه أشد التهديد، وقالوا: أما والله لا نتركك وما فعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا، فقام رسول الله ﷺ عنهم، وانصرف إلى أهله حزينًا أسفا لما فاته ما طمع من قومه[(١)].

عزم أبى جهل على قتل رسول الله ﷺ:

ولما انصرف رسول الله ﷺ عنهم خاطبهم أبو جهل فى كبريائه وقال: يا معشر قريش، إن محمدًا قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وشتم آلهتنا، وإنى أعاهد الله لأجلسن له بحجر ما أطيق حمله، فإذا سجد فى صلاته فضخت به رأسه، فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم، قالوا: والله لا نسلمك لشىء أبدًا، فامض لما تريد.

فلما أصبح أبو جهل، أخذ حجرًا كما وصف، ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره، وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو، فقام يصلى، وقد غدت قريش فجلسوا فى أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل، فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزمًا ممتقعًا لونه، مرعوبًا قد يبست يداه على حجره، حتى قذف الحجر من يده، وقامت إليه رجال قريش فقالوا له: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل به

(١) ملخص مما رواه ابن إسحاق (ابن هشام ١/ ٢٩٥- ٢٩٨)، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والدر المنثور ٤/ ٣٦٥، ٣٦٦).

ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه عرض لى دونه فَحْلٌ من الإبل، لا والله ما رأيت مثل هَامَتِه، ولا مثل قَصَرَتِه ولا أنيابه لفحل قط، فَهَمَّ بى أن يأكلنى.

قال ابن إسحاق: فذكر لى أن رسول الله ﷺ قال: «ذلك جبريل عليه السلام لو دنا لأخذه»[(١)].

مساومات وتنازلات:

ولما فشلت قريش فى مفاوضتهم المبنية على الإغراء والترغيب، والتهديد والترهيب، وخاب أبو جهل فيما أبداه من الرعونة وقصد الفتك، تيقظت فيهم رغبة الوصول إلى حل حصيف ينقذهم عما هم فيه، ولم يكونوا يجزمون أن النبى ﷺ على باطل، بل كانوا - كما قال الله تعالى:] H I J K ¶ Z [الشورى]. فرأوا أن يساوموه ﷺ فى أمور الدين، ويلتقوا به فى منتصف الطريق، فيتركوا بعض ما هم عليه، ويطالبوا النبى ﷺ بترك بعض ما هو عليه، وظنوا أنهم بهذا الطريق سيصيبون الحق، إن كان ما يدعو إليه النبى ﷺ حقًّا.

روى ابن إسحاق بسنده، قال: اعترض رسول الله ﷺ - وهو يطوف بالكعبة - الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى والوليد بن المغيرة وأمية بن خلف والعاص بن وائل السهمى - وكانوا ذوى أسنان فى قومهم - فقالوا: يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت فى الأمر، فإن كان الذى تعبد خيرًا مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيرًا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه، فأنزل الله تعالى فيهم:] ! " # $ % & ' ( ) Z السورة كلها[(٢)].

وأخرج عَبْدُ بن حُمَيْد وغيره عن ابن عباس، أن قريشًا قالت: لو استلمت آلهتنا لعبدنا إلهك. فأنزل الله:] ! " # Z السورة كلها[(٣)].

وأخرج ابن جرير وغيره عنه أن قريشًا قالوا لرسول الله ﷺ: تعبد آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة،فأنزل الله:] w x y z { | } ~ Z [الزمر][(٤)]

ولما حسم الله تعالى هذه المفاوضة المضحكة بهذه المفاصلة الجازمة لم تيأس قريش كل اليأس، بل أبدوا مزيدًا من التنازل بشرط أن يجرى النبى ﷺ بعض التعديل فيما جاء به

---

(١) ابن هشام ١/ ٢٩٨، ٢٩٩.
(٢) ابن هشام ١/ ٣٦٢.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٦٩٢.
(٤) تفسير ابن جرير الطبرى: سورة الكافرون.

من التعليمات، فقالوا:] ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ Z [يونس:١٥]، فقطع الله هذا السبيل أيضًا بإنزال ما يرد به النبى ﷺ عليهم فقال:] قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ Z [يونس] ونبه على عظم خطورة هذا العمل بقوله:] وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ Z [الإسراء].

حيرة قريش وتفكيرهم الجاد واتصالهم باليهود:

أظلمت أمام المشركين السبل بعد فشلهم فى هذه المفاوضات والمساومات والتنازلات، واحتاروا فيما يفعلون، حتى قام أحد شياطينهم: النضر بن الحارث، فنصحهم قائلًا: يا معشر قريش، والله لقد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلامًا حدثًا أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب، و جاءكم بما جاءكم به، قلتم: ساحر، لا والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونَفْثَهم وعَقْدَهم، وقلتم: كاهن، لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتَخَالُجَهم وسمعنا سَجَعَهُم، وقلتم: شاعر، لا والله ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هَزَجَه ورَجَزَه، وقلتم: مجنون، لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون، فما هو بخنقه، ولا وسوسته، ولا تخليطه، يا معشر قريش، فانظروا فى شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم.

وكأنهم لما رأوا صموده ﷺ فى وجه كل التحديات، ورفضه كل المغريات، وصلابته فى كل مرحلة – مع ما كان يتمتع به من الصدق والعفاف ومكارم الأخلاق – قويت شبهتهم فى كونه رسولًا حقًا، فقرروا أن يتصلوا باليهود حتى يتأكدوا من أمره ﷺ، فلما نصحهم النضر ابن الحارث بما سبق كلفوه مع آخر أو آخرين ليذهب إلى يهود المدينة، فأتاهم فقال أحبارهم: سلوه عن ثلاث، فإن أخبر فهو نبى مرسل، وإلا فهو متقول؛ سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول،ما كان أمرهم؟ فإن لهم حديثًا عجبًا، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح، ما هى؟

فلما قدم مكة قال: جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، وأخبرهم بما قاله اليهود، فسألت قريش رسول ﷺ عن الأمور الثلاثة، فنزلت بعد أيام سورة الكهف، فيها قصة أولئك الفتية، وهم أصحاب الكهف، وقصة الرجل الطواف، وهو ذو القرنين، ونزل الجواب عن الروح فى سورة الإسراء. وتبين لقريش أنه ﷺ على حق وصدق، ولكن أبى

الظالمون إلا كفورًا[١].

هذه نبذة خفيفة مما واجه به المشركون دعوة رسول الله ﷺ، وقد مارسوا كل ذلك جنبا إلى جنب، متنقلين من طور إلى طور، ومن دور إلى دور. فمن شدة إلى لين، ومن لين إلى شدة، ومن جدال إلى مساومة، ومن مساومة إلى جدال، ومن تهديد إلى ترغيب، ومن ترغيب إلى تهديد، كانوا يثورون ثم يخورون، ويجادلون ثم يجاملون، وينازلون ثم يتنازلون، ويوعدون ثم يرغبون، كأنهم كانوا يتقدمون ويتأخرون، لا يقر لهم قرار، ولا يعجبهم الفرار، وكان الغرض من كل ذلك هو إحباط الدعوة الإسلامية، ولَمِّ شَعْثِ الكفر، ولكنهم بعد بذل كل الجهود واختبار كل الحيل عادوا خائبين، ولم يبق أمامهم إلا السيف، والسيف لا يزيد الفرقة إلا شدة، ولا ينتج إلا عن تناحر يستأصل الشأفة، فاحتاروا ماذا يفعلون.

موقف أبى طالب وعشيرته:

أما أبو طالب فإنه لما واجه مطالبة قريش بتسليم النبى ﷺ لهم ليقتلوه، ثم رأى فى تحركاتهم وتصرفاتهم ما يؤكد أنهم يريدون قتله وإخفار ذمته - مثل ما فعله عقبة بن أبى معيط، وأبو جهل ابن هشام وعمر بن الخطاب - جمع بنى هاشم وبنى المطلب، ودعاهم إلى القيام بحفظ النبى ﷺ، فأجابوه إلى ذلك كلهم - مسلمهم وكافرهم - حَمِيَّةً للجوار العربى، وتعاقدوا وتعاهدوا عليه عند الكعبة. إلا ما كان من أخيه أبى لهب، فإنه فارقهم، وكان مع قريش[٢].

(١) ابن هشام ١/ ٢٩٩-٣٠١.

(٢) ابن هشام ١/ ٢٦٩.

المقاطعة العامة

ميثاق الظلم والعدوان:

زادت حيرة المشركين إذ نفدت بهم الحيل، ووجدوا بنى هاشم وبنى المطلب مصممين على حفظ نبى الله ﷺ والقيام دونه، كائنًا ما كان، فاجتمعوا فى خيف بنى كنانة من وادى المُحَصَّبِ فتحالفوا على بنى هاشم وبنى المطلب ألا يناكحوهم، ولا يبايعوهم، ولا يجالسوهم، ولا يخالطوهم، ولا يدخلوا بيوتهم، ولا يكلموهم، حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ للقتل، وكتبوا بذلك صحيفة فيها عهود ومواثيق «ألا يقبلوا من بنى هاشم صلحًا أبدًا، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل». قال ابن القيم: يقال: كتبها منصور ابن عكرمة بن عامر بن هاشم، ويقال: نضر بن الحارث، والصحيح أنه بَغِيض بن عامر بن هاشم، فدعا عليه رسول الله ﷺ فَشُلَّتْ يده[(١)].

تم هذا الميثاق وعلقت الصحيفة فى جوف الكعبة، فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب، مؤمنهم وكافرهم - إلا أبا لهب - وحبسوا فى شعب أبى طالب، وذلك فيما يقال: ليلة هلال المحرم سنة سبع من البعثة. وقد قيل غير ذلك.

ثلاثة أعوام فى شعب أبى طالب:

واشتد الحصار، وقطعت عنهم الميرة والمادة، فلم يكن المشركون يتركون طعامًا يدخل مكة ولا بيعًا إلا بادروه فاشتروه، حتى بلغهم الجهد، والتجأوا إلى أكل الأوراق والجلود، وحتى كان يسمع من وراء الشعب أصوات نسائهم وصبيانهم يتضاغون من الجوع، وكان لا يصل إليهم شىء إلا سرًّا، وكانوا لا يخرجون من الشعب لاشتراء الحوائج إلا فى الأشهر الحرم، وكانوا يشترون من العير التى ترد مكة من خارجها، ولكن أهل مكة كانوا يزيدون عليهم فى السلعة قيمتها حتى لا يستطيعون شراءها.

وكان حكيم بن حزام ربما يحمل قمحًا إلى عمته خديجة رضي الله عنها وقد تعرض له مرة أبو جهل فتعلق به ليمنعه، فتدخل بينهما أبو البخترى، ومكنه من حمل القمح إلى عمته.

(١) انظر: صحيح البخارى، الفتح ٣/ ٥٢٩، (١٥٨٩، ١٥٩٠، ٣٨٨٢، ٤٢٨٤، ٤٢٨٥، ٧٤٧٩)، وزاد المعاد ٢/ ٤٦.

وكان أبو طالب يخاف على رسول الله ﷺ، فكان إذا أخذ الناس مضاجعهم يأمر رسول الله ﷺ أن يضطجع على فراشه، حتى يرى ذلك من أراد اغتياله، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوانه أو بنى عمه فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ، وأمره أن يأتى بعض فرشهم.

وكان رسول الله ﷺ والمسلمون يخرجون فى أيام الموسم، فيلقون الناس، ويدعونهم إلى الإسلام، وقد أسلفنا ما كان يأتى به أبو لهب.

نقض صحيفة الميثاق:

مر عامان أو ثلاثة أعوام والأمر على ذلك، وفى المحرم[١] سنة عشر من النبوة نقضت الصحيفة وفك الحصار؛ وذلك أن قريشًا كانوا بين راض بهذا الميثاق وكاره له، فسعى فى نقض الصحيفة من كان كارهًا لها.

وكان القائم بذلك هشام بن عمرو من بنى عامر بن لؤى - وكان يصل بنى هاشم فى الشعب مستخفيًا بالليل بالطعام - فإنه ذهب إلى زهير بن أبى أمية المخزومى - وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب - وقال: يا زهير، أرضيت أن تأكل الطعام، وتشرب الشراب، وأخوالك بحيث تعلم؟ فقال: ويحك، فما أصنع وأنا رجل واحد؟ أما والله لو كان معى رجل آخر لقمت فى نقضها، قال: قد وجدت رجلًا. قال: فمن هو؟ قال: أنا. قال له زهير: ابغنا رجلًا ثالثًا.

فذهب إلى المطعم بن عدى، فذكره أرحام بنى هاشم وبنى المطلب ابنى عبد مناف، ولامه على موافقته لقريش على هذا الظلم، فقال المطعم: ويحك، ماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، قال: قد وجدت ثانيًا، قال: من هو؟ قال: أنا. قال: ابغنا ثالثًا. قال: قد فعلت. قال: من هو؟ قال: زهير بن أبى أمية، قال: ابغنا رابعًا.

فذهب إلى أبى البخترى بن هشام، فقال له نحوًا مما قال للمطعم، فقال: وهل من أحد يعين على هذا؟ قال: نعم. قال: من هو؟ قال زهير بن أبى أمية، والمطعم بن عدى، وأنا معك، قال: ابغنا خامسًا.

فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم،

---

(١) الدليل على هذا: أن أبا طالب مات بعد نقض الصحيفة بستة أشهر، والصحيح فى موت أبى طالب: أنه فى شهر رجب. ومن يقول: إنه مات فى رمضان، فهو يقول: إنه مات بعد نقض الصحيفة بثمانية أشهر وأيام.

فقال له: وهل على هذا الأمر الذى تدعونى إليه من أحد؟ قال: نعم، ثم سمى له القوم، فاجتمعوا عند الْحَجُون، وتعاقدوا على القيام بنقض الصحيفة، وقال زهير: أنا أبدأكم فأكون أول من يتكلم.

فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير عليه حلة، فطاف بالبيت سبعًا، ثم أقبل على الناس، فقال: يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى، لا يباع ولا يبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

قال أبو جهل - وكان فى ناحية المسجد: كذبت، والله لا تشق.

فقال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابتها حيث كتبت.

قال أبو البخترى: صدق زمعة، لا نرضى ما كتب فيها، ولا نقر به.

قال المطعم بن عدى: صدقتما، وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها.

وقال هشام بن عمرو نحوًا من ذلك.

فقال أبو جهل: هذا أمر قضى بليل، وتُشُوورِ فيه بغير هذا المكان.

وأبو طالب جالس فى ناحية المسجد، إنما جاءهم لأن الله كان قد أطلع رسوله ﷺ على أمر الصحيفة، وأنه أرسل عليها الأرضة، فأكلت جميع ما فيها من جور وقطيعة وظلم إلا ذكر الله عز وجل، فأخبر بذلك عمه، فخرج إلى قريش فأخبرهم أن ابن أخيه قد قال كذا وكذا، فإن كان كاذبًا خلينا بينكم وبينه، وإن كان صادقًا رجعتم عن قطيعتنا وظلمنا، قالوا: قد أنصفت.

وبعد أن دار الكلام بين القوم وبين أبى جهل، قام المطعم إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا «باسمك اللهم»، وما كان فيها من اسم الله فإنها لم تأكله.

ثم نقض الصحيفة، وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من الشعب، وقد رأى المشركون آية عظيمة من آيات نبوته، ولكنهم - كما أخبر الله عنهم [¢ £ ¤ ¥ ¦ § ¨ © Z [القمر] - أعرضوا عن هذه الآية، وازدادوا كفرًا إلى كفرهم[1].

(١) جمعنا تفاصيل المقاطعة من صحيح البخارى: باب نزول النبى ﷺ بمكة ١/ ٢١٦، وباب تقاسم المشركين على النبى ﷺ ١/ ٥٤٨، وزاد المعاد ٢/ ٤٦، وابن هشام ١/ ٣٥٠، ٣٥١، ٣٧٤- ٣٧٧، وغيرها.

آخر وفد قريش إلى أبى طالب

خرج رسول الله ﷺ من الشعب، وجعل يعمل على شاكلته، وقريش وإن كانوا قد تركوا القطيعة، لكنهم لم يزالوا عاملين على شاكلتهم من الضغط على المسلمين والصد عن سبيل الله، وأما أبو طالب فهو لم يزل يحوط ابن أخيه، لكنه كان قد جاوز الثمانين من سنه، وكانت الآلام والحوادث الضخمة المتوالية منذ سنوات - لاسيما حصار الشعب - قد وهنت وضعفت مفاصله وكسرت صلبه، فلم يمض على خروجه من الشعب إلا أشهر معدودات، وإذا هو يلاحقه المرض ويلح به، وحينئذ خاف المشركون سوء سمعتهم فى العرب إن أتوا بعد وفاته بمنكر على ابن أخيه، فحاولوا مرة أخرى أن يفاوضوا النبى ﷺ بين يديه، ويعطوا بعض ما لم يرضوا إعطاءه قبل ذلك. فقاموا بوفادة هى آخر وفادتهم إلى أبى طالب.

قال ابن إسحاق وغيره: لما اشتكى أبو طالب، وبلغ قريشًا ثقله، قالت قريش بعضها لبعض: إن حمزة وعمر قد أسلما، وقد فشا أمر محمد فى قبائل قريش كلها، فانطلقوا بنا إلى أبى طالب، فليأخذ على ابن أخيه، وليعطه منا، والله ما نأمن أن يبتزونا[1] أمرنا، وفى لفظ: فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون إليه شىء فتعيرنا به العرب، يقولون: تركوه حتى إذا مات عمه تناولوه.

مشوا إلى أبى طالب فكلموه، وهم أشراف قومه؛ عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل ابن هشام، وأمية بن خلف، وأبو سفيان بن حرب، فى رجال من أشرافهم - وهم خمسة وعشرون تقريبًا - فقالوا: يا أبا طالب، إنك منا حيث قد علمت، وقد حضرك ما ترى، وتخوفنا عليك، وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك، فادعه فخذ له منا، وخذ لنا منه؛ ليكف عنا ونكف عنه، وليدعنا وديننا وندعه ودينه، فبعث أبو طالب، فجاءه فقال: يابن أخى، هؤلاء أشراف قومك، قد اجتمعوا لك ليعطوك، وليأخذوا منك، ثم أخبره بالذى قالوا له وعرضوا عليه من عدم تعرض كل فريق للآخر. فقال لهم رسول الله ﷺ: **«أرأيتم إن أعطيتكم كلمة تكلمتم بها، ملكتم بها العرب، ودانت لكم بها العجم»**، وفى لفظ أنه قال مخاطبًا لأبى طالب: **«إنى أريدهم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب، وتؤدى إليهم بها العجم الجزية»**، وفى لفظ آخر قال: **«أى عم، أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم؟»**

(١) ابتزه أمره: سلبه إياه وغلبه عليه.

قال: وإلام تدعوهم؟ قال: «**أدعوهم إلى أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب، ويملكون بها العجم**»، ولفظ رواية ابن إسحاق: «**كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم**»، فلما قال هذه المقالة توقفوا وتحيروا ولم يعرفوا كيف يرفضون هذه الكلمة الواحدة النافعة إلى هذه الغاية والحد. ثم قال أبو جهل: ما هى؟ وأبيك لنعطيكها وعشر أمثالها، قال: تقولون: «**لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه**». فصفقوا بأيديهم، ثم قالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟ إن أمرك لعجب.

ثم قال بعضهم لبعض: إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئًا مما تريدون، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم، حتى يحكم الله بينكم وبينه، ثم تفرقوا.

وفى هؤلاء نزل قوله تعالى:] صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ٢ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ٣ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَاقٌ ٧ Z [ص][1].

(١) ابن هشام ١/ ٤١٧- ٤١٩، وينظر أيضًا: الترمذى ٥/ ٣٤١، ح (٣٢٣٢)، ومسند أبى يعلى ٤/ ٤٥٦، ح (٢٥٨٣)، وابن جرير فى تفسيره.

عام الحزن

وفاة أبى طالب:

ألح المرض بأبى طالب، فلم يلبث أن وافته المنية، وكانت وفاته فى رجب سنة عشر من النبوة، بعد الخروج من الشعب بستة أشهر[١]. وقيل: توفى فى رمضان قبل وفاة خديجة رضي الله عنها بثلاثة أيام.

وفى الصحيح عن المسيب: أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبى ﷺ وعنده أبو جهل، فقال: «**أى عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله**»، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية: يا أبا طالب، ترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا يكلماه حتى قال آخر شىء كلمهم به: على ملة عبد المطلب، فقال النبى ﷺ: «**لأستغفرن لك ما لم أنه عنه**»، فنزلت:] 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = > ? Z [التوبة] ونزلت: [_ ` a b c Z G F E D C B A@ [القصص: ٥٦][٢].

ولا حاجة إلى بيان ما كان عليه أبو طالب من الحياطة والمنع، فقد كان الحصن الذى احتمت به الدعوة الإسلامية من هجمات الكبراء والسفهاء، ولكنه بقى على ملة الأشياخ من أجداده، فلم يفلح كل الفلاح.

ففى الصحيح عن العباس بن عبد المطلب، قال للنبى ﷺ: ما أغنيت عن عمك، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: «**هو فى ضَحْضَاح من نار، ولولا أنا لكان فى الدرك الأسفل من النار**»[٣].

وعن أبى سعيد الخدرى أنه سمع النبى ﷺ - وذكر عنده عمه - فقال: «**لعله تنفعه شفاعتى يوم القيامة، فيجعل فى ضحضاح من النار تبلغ كعبيه**»[٤].

خديجة إلى رحمة الله:

وبعد وفاة أبى طالب بنحو شهرين أو بثلاثة أيام - على اختلاف القولين - توفيت أم المؤمنين خديجة الكبرى رضي الله عنها، وكانت وفاتها فى شهر رمضان فى السنة العاشرة من

(١) مختصر السيرة للشيخ عبد الله، ص ١١١.

(٢-٤) صحيح البخارى: باب قصة أبى طالب ١/ ٥٤٨.

النبوة، ولها خمس وستون سنة على أشهر الأقوال، ورسول الله ﷺ إذ ذاك فى الخمسين من عمره[١].

إن خديجة كانت من نعم الله الجليلة على رسول الله ﷺ، بقيت معه ربع قرن تحن عليه ساعة قلقه، وتؤازره فى أحرج أوقاته، وتعينه على إبلاغ رسالته، وتشاركه فى مغارم الجهاد المر،وتواسيه بنفسها ومالها، يقول رسول الله ﷺ: «**آمنت بى حين كفر بى الناس، وصدقتنى حين كذبنى الناس، وأشركتنى فى مالها حين حرمنى الناس، ورزقنى الله ولدها وحرم ولد غيرها**»[٢].

وفى الصحيح عن أبى هريرة قال: أتى جبريل النبى ﷺ، فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت، معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها، وبشرها ببيت فى الجنة من قَصَبٍ لا صَخَبَ فيه ولا نَصَبَ[٣].

تراكم الأحزان:

وقعت هاتان الحادثتان المؤلمتان خلال أيام معدودة، فاهتزت مشاعر الحزن والألم فى قلب رسول الله ﷺ، ثم لم تزل تتوالى عليه المصائب من قومه. فإنهم تجرأوا عليه وكاشفوه بالنكال والأذى بعد موت أبى طالب، فازداد غمًّا على غم، حتى يئس منهم، وخرج إلى الطائف رجاء أن يستجيبوا لدعوته، أو يؤووه وينصروه على قومه، فلم ير من يؤوى ولم ير ناصرًا، بل آذوه أشد الأذى، ونالوا منه ما لم ينله قومه.

وكما اشتدت وطأة أهل مكة على النبى ﷺ اشتدت على أصحابه، حتى التجأ رفيقه أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى الهجرة عن مكة، فخرج حتى بلغ بَرْك الغِمَاد، يريد الحبشة، فأرجعه ابن الدُّغُنَّة فى جواره[٤].

قال ابن إسحاق: لما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تطمع به فى حياة أبى طالب، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه ترابًا، ودخل بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهى تبكى، ورسول الله ﷺ يقول لها: «**لا تبكى يابنية، فإن الله مانع أباك**». قال: ويقول بين

(١) نص على موتها فى رمضان من تلك السنة ابن الجوزى فى التلقيح، ص ٧.
(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده ٦/ ١١٨.
(٣) صحيح البخارى: باب تزويج النبى ﷺ خديجة وفضلها ١/ ٥٣٩.
(٤) القصة بطولها مروية فى صحيح البخارى ١/ ٥٥٢، ٥٥٣، وابن هشام ١/ ٣٧٢- ٣٧٤.

ذلك: «ما نالت منى قريش شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب»[١].

ولأجل توالى مثل هذه الآلام فى هذا العام سمى بعام الحزن، وعرف به فى السيرة والتاريخ.

الزواج بسودة رضي الله عنها:

وفى شوال من هذه السنة - سنة ١٠ من النبوة - تزوج رسول الله ﷺ سودة بنت زمعة، كانت ممن أسلم قديمًا وهاجرت الهجرة الثانية إلى الحبشة، وكان زوجها السكران ابن عمرو، وكان قد أسلم وهاجر معها، فمات بأرض الحبشة، أو بعد الرجوع إلى مكة، فلما حلت خطبها رسول الله ﷺ وتزوجها، وكانت أول امرأة تزوجها بعد وفاة خديجة، وكانت قد وهبت نوبتها لعائشة رضي الله عنها أخيرًا[٢].

(١) ابن هشام ١/ ٤١٦.

(٢) تلقيح فهوم أهل الأثر، ص ١٠.

obeikandl.com

عوامل الصبر والثبات

وهنا يقف الحليم حيران، ويتساءل عقلاء الرجال فيما بينهم: ما هى الأسباب والعوامل التى بلغت بالمسلمين إلى هذه الغاية القصوى، والحد المعجز من الثبات؟ كيف صبروا على هذه الاضطهادات التى تقشعر لسماعها الجلود، وترجف لها الأفئدة؟ ونظرًا إلى هذا الذى يتخالج القلوب، نرى أن نشير إلى بعض هذه العوامل والأسباب إشارة عابرة بسيطة:

١ - الإيمان بالله:

إن السبب الرئيسى فى ذلك أولًا وبالذات هو الإيمان بالله وحده ومعرفته حق المعرفة، فالإيمان الجازم إذا خالطت بشاشته القلوب يزن الجبال ولا يطيش، وإن صاحب هذا الإيمان المحكم وهذا اليقين الجازم يرى متاعب الدنيا مهما كثرت وكبرت وتفاقمت واشتدت - يراها فى جنب إيمانه - طحالب عائمة فوق سَيْل جارف جاء ليكسر السدود المنيعة والقلاع الحصينة، فلا يبالى بشىء من تلك المتاعب أمام ما يجده من حلاوة إيمانه، وطراوة إذعانه، وبشاشة يقينه] ¿ À Á Â Ä Å Æ Ç È É Ê Z [الرعد: ١٧].

ويتفرع من هذا السبب الوحيد أسباب أخرى تقوى هذا الثبات والمصابرة وهى:

٢ - قيادة تهوى إليها الأفئدة:

فقد كان النبى ﷺ - وهو القائد الأعلى للأمة الإسلامية، بل وللبشرية جمعاء - يتمتع من جمال الخلق، وكمال النفس، ومكارم الأخلاق، والشيم النبيلة، والشمائل الكريمة، بما تتجاذب إليه القلوب وتتفانى دونه النفوس، وكانت أنصبته من الكمال الذى يحبَّبُ لم يرزق بمثلها بشر. وكان على أعلى قمة من الشرف والنبل والخير والفضل. وكان من العفة والأمانة والصدق، ومن جميع سبل الخير على ما لم يتمار ولم يشك فيه أعداؤه فضلًا عن محبيه ورفقائه، لا تصدر منه كلمة إلا ويستيقنون صدقها.

اجتمع ثلاثة نفر من قريش، وكان قد استمع كل واحد منهم إلى القرآن سرًّا عن صاحبيه، ثم انكشف سرهم، فسأل أحدهم أبا جهل - وكان من أولئك الثلاثة: ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف؛ أطعموا

فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب، وكنا كَفَرَسَىْ رِهَان قالوا: لنا نبى يأتيه الوحى من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبدًا، ولا نصدقه[(١)].

وكان أبو جهل يقول: يا محمد، إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به، فأنزل الله:] © ª « ¬ ® ¯ ° ± ² Z [الأنعام][(٢)].

وغمزه ﷺ الكفار يومًا ثلاث مرات، فقال فى الثالثة: «**يا معشر قريش، جئتكم بالذبح**»، فأخذتهم تلك الكلمة حتى إن أشدهم عداوة يرفؤه بأحسن ما يجد عنده.

ولما ألقوا عليه سَلاَ جَزُورٍ وهو ساجد، دعا عليهم، فذهب عنهم الضحك، وساورهم الهم والقلق، وأيقنوا أنهم هالكون.

ودعا على عتبة بن أبى لهب، فلم يزل على يقين من لقاء ما دعا به عليه، حتى إنه حين رأى الأسد قال: قتلنى والله – محمد – وهو بمكة.

وكان أبى بن خلف يتوعده بالقتل. فقال: «**بل أنا أقتلك إن شاء الله**»، فلما طعن أبيًّا فى عنقه يوم أحد – وكان خدشًا غير كبير – كان أبى يقول: إنه قد كان قال لى بمكة: أنا أقتلك، فو الله لو بصق علىَّ لقتلنى[(٣)] – وسيأتى.

وقال سعد بن معاذ – وهو بمكة – لأمية بن خلف: لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنهم** – أى المسلمين – **قاتلوك**»، ففزع فزعًا شديدًا، وعهد ألا يخرج عن مكة، ولما ألجأه أبو جهل للخروج يوم بدر اشترى أجود بعير بمكة ليمكنه من الفرار، وقالت له امرأته: يا أبا صفوان، وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربى؟ قال: لا والله ما أريد أن أجوز معهم إلا قريبًا[(٤)].

هكذا كان حال أعدائه ﷺ،أما أصحابه ورفقاؤه فقد حل منهم محل الروح والنفس، وشغل منهم مكان القلب والعين، فكان الحب الصادق يندفع إليه اندفاع الماء إلى الْحُدور، وكانت النفوس تنجذب إليه انجذاب الحديد إلى المغناطيس.

فصورته هيولى كل جسم ومغناطيس أفئدة الرجال

---

(١) ابن هشام ١/ ٣١٦.

(٢) رواه الترمذى فى تفسير سورة الأنعام ٥/ ٢٤٣، ح (٣٠٦٤).

(٣) ابن هشام ٢/ ٨٤.

(٤) انظر: صحيح البخارى ٢/ ٥٦٣.

وكان من أثر هذا الحب والتفانى أنهم كانوا ليرضون أن تندق أعناقهم، ولا يخدش له ظفر أو يشاك شوكة.

وطئ أبو بكر بن أبى قحافة يومًا بمكة، وضرب ضربًا شديدًا، دنا منه عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفين ويحرفهما لوجهه، ونزا على بطن أبى بكر، حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وحملت بنو تيم أبا بكر فى ثوب حتى أدخلوه منزله، ولا يشكون فى موته، فتكلم آخر النهار فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه، ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير: انظرى أن تطعميه شيئًا أو تسقيه إياه، فلما خلت به ألحت عليه، وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقالت: والله لا علم لى بصاحبك، فقال: اذهبى إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه، فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله، قالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد ابن عبد الله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك ذهبت، قالت: نعم، فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعًا دنفًا، فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح، وقالت: والله إن قومًا نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإنى لأرجو أن ينتقم الله لك منهم، قال: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت: هذه أمك تسمع، قال: فلا شىء عليك منها، قالت: سالم صالح، فقال: أين هو؟ قالت: فى دار ابن الأرقم، قال: فإن لله على ألا أذوق طعامًا ولا أشرب شرابًا أو آتى رسول الله ﷺ، فأمهلتا حتى إذا هدأت الرِّجْل، وسكن الناس خرجتا به، يتكئ عليهما، حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ[1].

وسننقل نوادر الحب والتفانى فى مواضع شتى من هذا الكتاب، ولا سيما ما وقع فى يوم أحد، وما وقع من خبيب وأمثاله.

٣ - الشعور بالمسئولية:

فكان الصحابة يشعرون شعورًا تامًّا ما على كواهل البشر من المسئولية الفخمة الضخمة، وأن هذه المسئولية لا يمكن عنها الحياد والانحراف بحال، فالعواقب التى تترتب على الفرار عن تحملها أشد وخامة وأكبر ضررًا عما هم فيه من الاضطهاد، وأن الخسارة التى تلحقهم - وتلحق البشرية جمعاء - بعد هذا الفرار لا يقاس بحال على المتاعب التى كانوا يواجهونها نتيجة هذا التحمل.

(١) البداية والنهاية ٣/ ٣٠.

٤ - الإيمان بالآخرة:

وهو مما كان يقوى هذا الشعور - الشعور بالمسئولية - فقد كانوا على يقين جازم بأنهم يقومون لرب العالمين، ويحاسبون على أعمالهم دقها وجلها، صغيرها وكبيرها، فإما إلى النعيم المقيم، وإما إلى عذاب خالد فى سواء الجحيم، فكانوا يقضون حياتهم بين الخوف والرجاء، يرجون رحمة ربهم ويخافون عذابه، وكانوا] " # $ % & ' ( ) * + Z [المؤمنون]، وكانوا يعرفون أن الدنيا بعذابها ونعيمها لا تساوى جناح بعوضة فى جنب الآخرة، وكانت هذه المعرفة القوية تهون لهم متاعب الدنيا ومشاقها ومرارتها؛ حتى لم يكونوا يكترثون لها ويلقون إليها بالًا.

٥ - القرآن:

وفى هذه الفترات العصيبة الرهيبة الحالكة كانت تنزل السور والآيات تقيم الحجج والبراهين على صدق مبادئ الإسلام - التى كانت الدعوة تدور حولها - بأساليب منيعة خلابة، وترشد المسلمين إلى أسس قدر الله أن يتكون عليها أعظم وأروع مجتمع بشرى فى العالم - وهو المجتمع الإسلامى - وتثير مشاعر المسلمين ونوازعهم على الصبر والتجلد، تضرب لذلك الأمثال، وتبين لهم ما فيه من الحكم] أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ Z [البقرة]] الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ Z [العنكبوت].

كما كانت تلك الآيات ترد على إيرادات الكفار والمعاندين ردًّا مفحمًا، ولا تبقى لهم حيلة، ثم تحذرهم مرة عن عواقب وَخِيمَة - إن أصروا على غيهم وعنادهم - فى جلاء ووضوح، مستدلة بأيام الله، والشواهد التاريخية التى تدل على سنة الله فى أوليائه وأعدائه، وتلطفهم مرة، وتؤدى حق التفهيم والإرشاد والتوجيه حتى ينصرفوا عما هم فيه من الضلال المبين.

وكان القرآن يسير بالمسلمين فى عالم آخر، ويبصرهم من مشاهد الكون وجمال الربوبية، وكمال الألوهية، وآثار الرحمة والرأفة، وتجليات الرضوان ما يحنون إليه حنينًا لا يقوم له أى عقبة.

وكانت فى طى هذه الآيات خطابات للمسلمين، فيها] يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ

وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ Z [التوبة]، وتصور لهم صورة أعدائهم من الكفرة الطغاة الظالمين يحاكمون ويصادرون، ثم [Ø × Ö Õ Ù Ú Û Ü Ý Z [القمر].

٦ - البشارات بالنجاح:

ومع هذا كله كان المسلمون يعرفون منذ أول يوم لاقوا فيه الشدة والاضطهاد - بل ومن قبله - أن الدخول فى الإسلام ليس معناه جر المصائب والحتوف، بل إن الدعوة الإسلامية تهدف - منذ أول يومها - إلى القضاء على الجاهلية الجهلاء ونظامها الغاشم، وأن من نتائجها فى الدنيا بسط النفوذ على الأرض، والسيطرة على الموقف السياسى فى العالم لتقود الأمة الإنسانية والجمعية البشرية إلى مرضاة الله، وتخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله.

وكان القرآن ينزل بهذه البشارات - مرة بالصراحة وأخرى بالكناية - ففى تلك الفترات القاصمة التى ضيقت الأرض على المسلمين، وكادت تخنقهم وتقضى على حياتهم كانت تنزل الآيات بما جرى بين الأنبياء السابقين وبين أقوامهم الذين قاموا بتكذيبهم والكفر بهم، وكانت تشتمل هذه الآيات على ذكر الأحوال التى تطابق تمامًا أحوال مسلمى مكة وكفارها، ثم تذكر هذه الآيات بما تمخضت عنه تلك الأحوال من إهلاك الكفرة والظالمين، وإيراث عباد الله الصالحين الأرض والديار. فكانت فى هذه القصص إشارات واضحة إلى فشل أهل مكة فى المستقبل، ونجاح المسلمين مع نجاح الدعوة الإسلامية.

وفى هذه الفترات نزلت آيات تصرح ببشارة غلبة المؤمنين، قال تعالى: [وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ Z [الصافات]،وقال: [Æ Å Ä Ã Â Z [القمر]، وقال: [جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ Z [ص]. ونزلت فى الذين هاجروا إلى الحبشة: [Ë Ê É È Ç Æ Å Ä Ã Â Z [النحل]. وسألوه عن قصة يوسف، فأنزل الله فى طيها: [Ö Õ Ô Ó Ò Ñ Ð Ï Î Í Ì Z [يوسف]. أى فأهل مكة السائلون يلاقون ما لاقى إخوانه من الفشل، ويستسلمون كاستسلامهم، وقال وهو يذكر الرسل: [U V W X Y Z [\ ] ^ _ ` a Z

p o n m l k j i h g f e d c b
q r Z [إبراهيم]. وحينما كانت الحرب مشتعلة بين الفرس والرومان، وكان الكفار يحبون غلبة الفرس لكونهم مشركين، والمسلمون يحبون غلبة الرومان لكونهم مؤمنين بالله والرسل والوحى والكتب واليوم الآخر، وكانت الفرس يغلبون ويتقدمون، أنزل الله بشارة بغلبة الروم فى بضع سنين، ولكنه لم يقتصر على هذه البشارة الواحدة، بل صرح ببشارة أخرى، وهى نصر الله للمؤمنين حيث قال:] ¶ ¸ ¹ º » ¼ Z [الروم: ٤، ٥].

وكان رسول الله ﷺ نفسه يقوم بمثل هذه البشارات بين آونة وأخرى، فكان إذا وافى الموسم، وقام بين الناس فى عُكاظ، ومَجَنَّة، وذى المَجَاز لتبليغ الرسالة، لم يكن يبشرهم بالجنة فحسب، بل يقول لهم بكل صراحة: **«يأيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، وتملكوا بها العرب، وتدين لكم بها العجم، فإذا متم كنتم ملوكًا فى الجنة»**[(١)].

وقد أسلفنا ما أجاب به النبى ﷺ عتبة بن ربيعة حين أراد مساومته على رغائب الدنيا، وما فهمه ورجاه عتبة من ظهور أمره- عليه الصلاة والسلام.

وكذلك ما أجاب به النبى ﷺ آخر وفد جاء إلى أبى طالب، فقد صرح لهم أنه يطلب منهم كلمة واحدة يعطونها تدين لهم بها العرب، ويملكون العجم.

وقال خباب بن الأرت: أتيت النبى ﷺ وهو متوسد برده وهو فى ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: ألا تدعو الله، فقعد، وهو محمر وجهه، فقال: **«لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله - زاد بيان الراوى - والذئب على غنمه»**[(٢)]، وفى رواية: **«ولكنكم تستعجلون»**[(٣)].

ولم تكن هذه البشارات مخفية مستورة، بل كانت فاشية مكشوفة، يعلمها الكفرة، كما كان يعلمها المسلمون، حتى كان الأسود بن المطلب وجلساؤه إذا رأوا أصحاب النبى ﷺ تغامزوا بهم، وقالوا: قد جاءكم ملوك الأرض الذين يرثون كسرى وقيصر، ثم يصفرون ويصفقون[(٤)].

---

(١) ابن سعد ١/ ٢١٦.
(٢) صحيح البخارى ١/ ٥٤٣.
(٣) المصدر نفسه ١/ ٥١٠.
(٤) السيرة الحلبية ١/ ٥١١، ٥١٢.

وأمام هذه البشارات بالمستقبل المجيد المستنير فى الدنيا، مع ما فيه من الرجاء الصالح الكبير البالغ إلى النهاية فى الفوز بالجنة، كان الصحابة يرون أن الاضطهادات التى تتوالى عليهم من كل جانب، والمصائب التى تحيط بهم من كل الأرجاء ليست إلا: «سحابة صيف عن قليل تقشع».

هذا ولم يزل الرسول ﷺ يغذى أرواحهم برغائب الإيمان، ويزكى نفوسهم بتعليم الحكمة والقرآن، ويربيهم تربية دقيقة عميقة، يحدو بنفوسهم إلى منازل سمو الروح، ونقاء القلب، ونظافة الخلق، والتحرر من سلطان الماديات، والمقاومة للشهوات، والنزوع إلى رب الأرض والسموات، ويذكى جمرة قلوبهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويأخذهم بالصبر على الأذى، والصفح الجميل، وقهر النفس. فازدادوا رسوخًا فى الدين،وعزوفا عن الشهوات، وتفانيًا فى سبيل المرضاة، وحنينًا إلى الجنة، وحرصًا على العلم، وفقهًا فى الدين، ومحاسبة للنفس، وقهرًا للنزعات، وغلبة على العواطف، وتسيطرًا على الثائرات والهائجات، وتقيدًا بالصبر والهدوء والوقار.

obeikandl.com

المرحلة الثالثة

دعوة الإسلام خارج مكة

الرسول ﷺ فى الطائف:

فى شوال سنة عشر من النبوة (فى أواخر مايو أو أوائل يونيو سنة ٦١٩ م) خرج النبى ﷺ إلى الطائف، وهى تبعد عن مكة نحو ستين ميلًا، سارها ماشيًا على قدميه جيئة وذهوبًا، ومعه مولاه زيد بن حارثة، وكان كلما مر على قبيلة فى الطريق دعاهم إلى الإسلام، فلم تجب إليه واحدة منها.

فلما انتهى إلى الطائف عمد ثلاثة إخوة من رؤساء ثقيف، وهم عبد ياليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفى، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله، وإلى نصرة الإسلام، فقال أحدهم: هو يَمْرُط ثياب الكعبة (أى يمزقها) إن كان الله أرسلك. وقال الآخر: أما وَجَدَ الله أحدًا غيرك، وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدًا، إن كنت رسولًا لأنت أعظم خطرًا من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى أن أكلمك. فقام عنهم رسول الله ﷺ وقال لهم: «**إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني**».

وأقام رسول الله ﷺ بين أهل الطائف عشرة أيام، لا يدع أحدًا من أشرافهم إلا جاءه وكلمه، فقالوا: اخرج من بلادنا. وأغروا به سفهاءهم، فلما أراد الخروج تبعه سفهاؤهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، فوقفوا له سِمَاطَيْن (أى صفين) وجعلوا يرمونه بالحجارة، وبكلمات من السفه، ورجموا عراقيبه، حتى اختضب نعلاه بالدماء. وكان زيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى أصابه شِجَاج فى رأسه، ولم يزل به السفهاء كذلك حتى ألجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابنى ربيعة على ثلاثة أميال من الطائف، فلما التجأ إليه رجعوا عنه، وأتى رسول الله ﷺ إلى حُبْلَة من عنب فجلس تحت ظلها إلى جدار. فلما جلس إليه واطمأن، دعا بالدعاء المشهور الذى يدل على امتلاء قلبه كآبة وحزنًا مما لقى من الشدة، وأسفًا على أنه لم يؤمن به أحد، قال:

«**اللهم إليك أشكو ضَعْف قُوَّتِى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربى، إلى من تَكِلُنى؟ إلى بعيد يَتَجَهَّمُنِى؟ أم إلى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى، ولكن عافيتك هى أوسع لى، أعوذ بنور وجهك**

الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك، أو يحل على سَخَطُك، لك العُتْبَى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

فلما رآه ابنا ربيعة تحركت له رحمهما، فدعوا غلامًا لهما نصرانيًّا يقال له: عَدَّاس، وقالا له: خذ قطفًا من هذا العنب، واذهب به إلى هذا الرجل. فلما وضعه بين يدى رسول الله ﷺ مد يده إليه قائلًا: «باسم الله» ثم أكل.

فقال عداس: إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله ﷺ: «من أى البلاد أنت؟ وما دينك؟» قال: أنا نصرانى من أهل نِينَوَى. فقال رسول الله ﷺ: «من قرية الرجل الصالح يونس بن مَتَّى». قال له: وما يدريك ما يونس ابن متى؟ قال رسول الله ﷺ: «ذاك أخى، كان نبيًّا وأنا نبى»، فأكب عداس على رأس رسول الله ﷺ ويديه ورجليه يقبلها.

فقال ابنا ربيعة أحدهما للآخر: أما غلامك فقد أفسده عليك. فلما جاء عداس قالا له: ويحك ما هذا؟ قال: يا سيدى، ما فى الأرض شىء خير من هذا الرجل، لقد أخبرنى بأمر لا يعلمه إلا نبى، قالا له: ويحك يا عداس، لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه[(١)].

ورجع رسول الله ﷺ فى طريق مكة بعد خروجه من الحائط كئيبًا محزونًا كسير القلب، فلما بلغ قرن المنازل بعث الله إليه جبريل ومعه ملك الجبال، يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة.

وقد روى البخارى تفصيل القصة - بسنده - عن عروة بن الزبير، أن عائشة رضي الله عنها حدثته أنها قالت للنبى ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟ قال: **«لقيت من قومكِ ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كُلاَل، فلم يجبنى إلى ما أردت، فانطلقت - وأنا مهموم - على وجهى، فلم أستفق إلا وأنا بقَرْنِ الثعالب** - وهو المسمى بقَرْنِ المنازل - **فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى، فنظرت فإذا فيها جبريل، فنادانى، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فنادانى ملك الجبال، فسلم علىّ ثم قال: يا محمد، ذلك، فما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين** - أى: لفعلت، والأخشبان: هما جبلا مكة: أبو قُبَيْس والذى يقابله، وهو قُعَيْقِعَان - قال

(١) ملخصا من ابن هشام ١/ ٤١٩- ٤٢١..

النبى ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله عز وجل وحده لا يشرك به شيئا»[(١)].

وفى هذا الجواب الذى أدلى به الرسول ﷺ تتجلى شخصيته الفذة، وما كان عليه من الخلق العظيم لا يدرك غوره.

وأفاق رسول الله ﷺ واطمأن قلبه لأجل هذا النصر الغيبى الذى أمده الله عليه من فوق سبع سموات، ثم تقدم فى طريق مكة حتى بلغ وادى نخلة، وأقام فيه أيامًا. وفى وادى نخلة موضعان يصلحان للإقامة - السَّيْل الكبير والزَّيْمَة - لما بهما من الماء والخصب، ولم نقف على مصدر يعين موضع إقامته ﷺ فيه.

وخلال إقامته ﷺ هناك بعث الله إليه نفرًا من الجن[(٢)] ذكرهم الله فى موضعين من القرآن: فى سورة الأحقاف:] وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ Z [الأحقاف].

وفى سورة الجن:] ! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 2 Z إلى تمام الآية الخامسة عشر [الجن].

ومن سياق هذه الآيات - وكذا من سياق الروايات التى وردت فى تفسير هذا الحادث - يتبين أن النبى ﷺ لم يعلم حضور ذلك النفر من الجن حين حضروا وسمعوا، وإنما علم بعد ذلك حين أطلعه الله عليه بهذه الآيات، وأن حضورهم هذا كان لأول مرة، ويقتضى سياق الروايات أنهم وفدوا بعد ذلك مرارًا.

وحقًّا كان هذا الحادث نصرًا آخر أمده الله من كنوز غيبه المكنون بجنوده التى لا يعلمها إلا هو، ثم إن الآيات التى نزلت بصدد هذا الحادث كانت فى طيها بشارات بنجاح دعوة النبى ﷺ، وأن أى قوة من قوات الكون لا تستطيع أن تحول بينها وبين نجاحها:] وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ Z [الأحقاف]،] Ì Ë Ê É È ÇÆ Å ÄÃ Â Á Z [الجن].

---

(١) صحيح البخارى: كتاب بدء الخلق، ح (٣٢٣١، ٧٣٨٩)، فتح البارى ٦/ ٣٦٠، ومسلم: باب ما لقى النبى ﷺ من أذى المشركين والمنافقين ٢/ ١٠٩.

(٢) انظر: صحيح البخارى: كتاب الصلاة، باب الجهر بقراءة صلاة الفجر ١/ ١٩٥.

أمام هذه النصرة، وأمام هذه البشارات، أقشعت سحابة الكآبة والحزن واليأس التى كانت مطبقة عليه منذ أن خرج من الطائف مطرودًا مدحورًا، حتى صمم على العود إلى مكة، وعلى القيام باستئناف خطته الأولى فى عرض الإسلام وإبلاغ رسالة الله الخالدة بنشاط جديد وبجد وحماس.

وحينئذ قال له زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك؟ يعنى قريشًا، فقال: «**يا زيد، إن الله جاعل لما ترى فرجًا ومخرجًا، وإن الله ناصر دينه، ومظهر نبيه**». وسار رسول الله ﷺ حتى إذا دنا من مكة مكث بحِرَاء، وبعث رجلًا من خزاعة إلى الأخنس بن شَرِيق ليجيره، فقال: أنا حليف، والحليف لا يجير، فبعث إلى سهيل بن عمرو، فقال سهيل: إن بنى عامر لا تجير على بنى كعب، فبعث إلى المطعم بن عدى، فقال المطعم: نعم، ثم تسلح ودعا بنيه وقومه، فقال: البسوا السلاح، وكونوا عند أركان البيت، فإنى قد أجرت محمدًا، ثم بعث إلى رسول الله ﷺ: أن ادخل، فدخل رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام، فقام المطعم بن عدى على راحلته فنادى: يا معشر قريش، إنى قد أجرت محمدًا فلا يهجه أحد منكم، وانتهى رسول الله ﷺ إلى الركن فاستلمه، وطاف بالبيت، وصلى ركعتين، وانصرف إلى بيته، ومطعم بن عدى وولده محدقون به بالسلاح حتى دخل بيته.

وقيل: إن أبا جهل سأل مطعمًا: أمجير أنت أم متابع - مسلم-؟. قال: بل مجير. قال: قد أجرنا من أجرت.[(١)]

وقد حفظ رسول الله ﷺ للمطعم هذا الصنيع، فقال فى أسارى بدر: «**لو كان المطعم بن عدى حيًّا ثم كلمنى فى هؤلاء النتنى لتركتهم له**»[(٢)].

(١) ابن هشام ١/ ٣٨١ مختصرا، وزاد المعاد ٢/ ٤٦، ٤٧.

(٢) صحيح البخارى ٢/ ٥٧٣.

عرض الإسلام على القبائل والأفراد

فى ذى القعدة سنة عشر من النبوة - فى أواخر يونيو أو أوائل يوليو سنة ٦١٩ م - عاد رسول الله ﷺ إلى مكة؛ ليستأنف عرض الإسلام على القبائل والأفراد، ولاقتراب الموسم كان الناس يأتون إلى مكة رجالا، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق لأداء فريضة الحج، وليشهدوا منافع لهم، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات، فانتهز رسول الله ﷺ هذه الفرصة، فأتاهم قبيلة قبيلة يعرض عليهم الإسلام ويدعوهم إليه، كما كان يدعوهم منذ السنة الرابعة من النبوة، وقد بدأ يطلب منهم من هذه السنة - العاشرة - أن يؤووه وينصروه ويمنعوه حتى يبلغ ما بعثه الله به.

القبائل التى عرض عليها الإسلام:

قال الزهرى: وكان ممن يسمى لنا من القبائل الذين أتاهم رسول الله ﷺ، ودعاهم وعرض نفسه عليهم: بنو عامر بن صَعْصَعَة، ومُحَارِب بن خَصَفَة، وفزارة، وغسان، ومرة، وحنيفة، وسليم، وعَبْس، وبنو نصر، وبنو البَكَّاء، وكندة، وكلب، والحارث بن كعب، وعُذْرَة، والحضارمة، فلم يستجب منهم أحد[1].

وهذه القبائل -التى سماها الزهرى- لم يكن عرض الإسلام عليها فى سنة واحدة ولا فى موسم واحد، بل إنما كان ما بين السنة الرابعة من النبوة إلى آخر موسم قبل الهجرة. ولا يمكن تسمية سنة معينة لعرض الإسلام على قبيلة معينة، ولكن الأكثر كان فى السنة العاشرة.

أما كيفية عرض الإسلام على هذه القبائل، وكيف كانت ردودهم على هذا العرض، فقد ذكرها ابن إسحاق، ونلخصها فيما يلى:

١ - **بنو كلب:** أتى النبى ﷺ إلى بطن منهم يقال لهم: بنو عبد الله، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه، حتى إنه ليقول لهم: «**يا بنى عبد الله، إن الله قد أحسن اسم أبيكم**»، فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم.

٢ - **بنو حنيفة:** أتاهم فى منازلهم فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه، فلم يكن أحد من العرب أقبح عليه ردًّا منهم.

(١) ابن سعد ١/ ٢١٦.

٣ - وأتى إلى بنى عامر بن صعصعة: فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه، فقال بَيْحَرَة بن فِرَاس (رجل منهم): والله، لو أنى أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، ثم قال: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: «**الأمر إلى الله، يضعه حيث يشاء**»، فقال له: أَفَنُهْدَفُ نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا، لا حاجة لنا بأمرك، فأبوا عليه.

ولما رجعت بنو عامر تحدثوا إلى شيخ لهم لم يواف الموسم لكبر سنه، وقالوا له: جاءنا فتى من قريش من بنى عبد المطلب يزعم أنه نبى، يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه، ونخرج به إلى بلادنا، فوضع الشيخ يديه على رأسه ثم قال: يا بنى عامر وهل لها من تَلاَف؟ هل لذُنَابَاها[١] من مَطْلَب؟ والذى نفس فلان بيده ما تَقَوَّلَها إسماعيلى قط، وإنها لحق، فأين رأيكم كان عنكم؟[٢].

المؤمنون من غير أهل مكة:

وكما عرض رسول الله ﷺ الإسلام على القبائل والوفود، عرض على الأفراد والأشخاص، وحصل من بعضهم على ردود صالحة، وآمن به عدة رجال بعد هذا الموسم بقليل، وهاك نبذة منهم:

١ - سويد بن الصامت:

كان شاعرًا لبيبًا، من سكان يثرب، يسميه قومه (الكامل) لجلده وشعره وشرفه ونسبه، جاء مكة حاجًّا أو معتمرًا، فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فقال: لعل الذى معك مثل الذى معى. فقال له رسول الله ﷺ: «**وما الذى معك؟**» قال: حكمة لقمان. قال: «**اعرضها علىَّ**». فعرضها، فقال له رسول الله ﷺ: «**إن هذا لكلام حسن، والذى معى أفضل من هذا؛ قرآن أنزله الله تعالى علىّ، هو هدى ونور**»، فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن، ودعاه إلى الإسلام، فأسلم، وقال: إن هذا لقول حسن. فلما قدم المدينة لم يلبث أن قتل فى وقعة بين الأوس والخزرج قبل يوم بعاث[٣]. والأغلب أنه أسلم فى أوائل السنة الحادية عشرة من النبوة.

---

(١) مثل يضرب لما فات، وأصله من ذنابى الطائر إذا أفلت من حباله، فطلبت الأخذ بذناباه.

(٢) ابن هشام ١/ ٤٢٤، ٤٢٥.

(٣) ابن هشام ١/ ٤٢٥- ٤٢٧، والاستيعاب ٢/ ٦٧٧، وأسد الغابة ٢/ ٣٣٧.

٢ - إياس بن معاذ:

كان غلامًا حدثا من سكان يثرب، قدم فى وفد من الأوس، جاءوا يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، وذلك قبيل حرب بعاث فى أوائل سنة ١١ من النبوة؛ إذ كانت نيران العداوة متقدة فى يثرب بين القبيلتين - وكان الأوس أقل عددًا من الخزرج - فلما علم رسول الله ﷺ بمقدمهم جاءهم، فجلس إليهم، وقال لهم: «**هل لكم فى خير مما جئتم له؟**»، فقالوا: وما ذاك؟ قال: «**أنا رسول الله، بعثنى إلى العباد، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا، وأنزل علىّ الكتاب**»، ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. فقال إياس بن معاذ: أى قوم، هذا والله خير مما جئتم له، فأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع - رجل من الوفد - حفنة من تراب البطحاء فرمى بها وجه إياس، وقال: دعنا فلعمرى لقد جئنا لغير هذا، فصمت إياس، وقام رسول الله ﷺ، وانصرفوا إلى المدينة من غير أن ينجحوا فى عقد حلف مع قريش.

وبعد رجوعهم إلى يثرب لم يلبث إياس أن هلك، وكان يهلل ويكبر ويحمد ويسبح عند موته، فلا يشكون أنه مات مسلمًا[(١)].

٣ - أبو ذر الغفارى:

وكان من سكان نواحى يثرب، ولعله لما بلغ إلى يثرب خبر مبعث النبى ﷺ بسويد بن الصامت وإياس بن معاذ، وقع فى أذن أبى ذر أيضًا، وصار سببًا لإسلامه.

روى البخارى عن ابن عباس قال: قال أبو ذر: كنت رجلًا من غفار، فبلغنا أن رجلًا قد خرج بمكة يزعم أنه نبى، فقلت لأخى: انطلق إلى هذا الرجل وكلمه، وائتنى بخبره، فانطلق فلقيه، ثم رجع، فقلت: ما عندك؟ فقال: والله، لقد رأيت رجلًا يأمر بالخير، وينهى عن الشر، فقلت له: لم تشفنى من الخبر، فأخذت جرابًا وعصا، ثم أقبلت إلى مكة، فجعلت لا أعرفه، وأكره أن أسأل عنه، وأشرب من ماء زمزم وأكون فى المسجد. قال: فمر بى علىّ. فقال: كأن الرجل غريب؟ قال: قلت: نعم. فقال: فانطلق إلى المنزل، فانطلقت معه لا يسألنى عن شىء ولا أسأله ولا أخبره. فلما أصبحت غدوت إلى المسجد لأسأل عنه، وليس أحد يخبرنى عنه بشيء. قال: فمر بى علىّ فقال: أما نال[(٢)] للرجل يعرف منزله بعد؟ قال: قلت: لا. قال: فانطلق معى، قال: فقال: ما أمرك؟ وما أقدمك هذه البلدة؟ قال: قلت له: إن كتمت علىّ

(١) ابن هشام ١/ ٤٢٧، ٤٢٨، ومسند أحمد ٥/ ٤٢٧.
(٢) حان.

أخبرتك، قال: فإنى أفعل، قال: قلت له: بلغنا أنه قد خرج هاهنا رجل يزعم أنه نبى الله، فأرسلت أخى يكلمه فرجع ولم يشفنى من الخبر، فأردت أن ألقاه.

فقال له: أما إنك قد رشدت. هذا وجهى إليه، ادخل حيث أدخل فإنى إن رأيت أحدًا أخافه عليك قمت إلى الحائط كأنى أصلح نعلى، وامض أنت. فمضى ومضيت معه حتى دخل، ودخلت معه على النبى ﷺ. فقلت له: اعرض عليّ الإسلام. فعرضه، فأسلمت مكانى، فقال لى: «**يا أبا ذر، اكتم هذا الأمر، وارجع إلى بلدك، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل**». فقلت: والذى بعثك بالحق لأصرخن بها بين أظهرهم، فجئت إلى المسجد، وقريش فيه، فقلت: يا معشر قريش، إنى أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فقالوا: قوموا إلى هذا الصابئ. فقاموا، فضربت لأموت، فأدركنى العباس فأكب عليّ، ثم أقبل عليهم فقال: ويلكم تقتلون رجلًا من غفار؟ ومتجركم وممركم على غفار، فأقلعوا عنى. فلما أن أصبحت الغد، رجعت، فقلت مثل ما قلت بالأمس. فقالوا: قوموا إلى هذا الصابئ، فصنع بى ما صنع بالأمس، فأدركنى العباس، فأكب عليّ وقال مثل مقالته بالأمس[(١)].

٤ - طُفَيْل بن عمرو الدَّوْسى:

كان رجلًا شريفًا، شاعرًا لبيبًا، رئيس قبيلة دوس، وكانت لقبيلته إمارة أو شبه إمارة فى بعض نواحى اليمن، قدم مكة فى عام ١١ من النبوة، فاستقبله أهلها قبل وصوله إليها، وبذلوا له أجل تحية وأكرم تقدير، وقالوا له: يا طفيل، إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر، يفرق بين الرجل وأبيه، وبين الرجل وأخيه، وبين الرجل وزوجه، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمه ولا تسمعن منه شيئًا.

يقول طفيل: فوالله ما زالوا بى حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئًا، ولا أكلمه، حتى حشوت أذنى حين غدوت إلى المسجد كُرْسُفًا؛ فرقًا من أن يبلغنى شىء من قوله، قال: فغدوت إلى المسجد فإذا هو قائم يصلى عند الكعبة، فقمت قريبًا منه، فأبى الله إلا أن يسمعنى بعض قوله، فسمعت كلامًا حسنًا، فقلت فى نفسى: واثكل أمى، والله إنى رجل لبيب شاعر؛ ما يخفى عليّ الحسن من القبيح، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟ فإن كان حسنًا قبلته، وإن كان قبيحًا تركته، فمكثت حتى انصرف إلى بيته فاتبعته، حتى

(١) صحيح البخارى: باب قصة زمزم ١/ ٤٩٩، ٥٠٠، وباب إسلام أبى ذر ١/ ٥٤٤، ٥٤٥.

إذا دخل بيته دخلت عليه، فعرضت عليه قصة مقدمى، وتخويف الناس إياى، وسد الأذن بالكرسف، ثم سماع بعض كلامه، وقلت له: اعرض عليّ أمرك، فعرض عليّ الإسلام، وتلا عليّ القرآن. فوالله ما سمعت قولًا قط أحسن منه، ولا أمرًا أعدل منه، فأسلمت وشهدت شهادة الحق، وقلت له: إنى مطاع فى قومى، وراجع إليهم، وداعيهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لى آية، فدعا.

وكانت آيته أنه لما دنا من قومه جعل الله نورًا فى وجهه مثل المصباح، فقال: اللهم فى غير وجهى. أخشى أن يقولوا: هذه مثلة، فتحول النور إلى سوطه، فدعا أباه وزوجته إلى الإسلام فأسلما، وأبطأ عليه قومه فى الإسلام، لكن لم يزل بهم حتى هاجر بعد الخندق[١]، ومعه سبعون أو ثمانون بيتًا من قومه، وقد أبلى فى الإسلام بلاء حسنًا، وقتل شهيدًا يوم اليمامة[٢].

٥ - ضِمَاد الأزدى:

كان من أَزْدِ شَنُوءَة من اليمن، وكان يرقى من هذا الريح، قدم مكة فسمع سفهاءها يقولون: إن محمدًا مجنون، فقال: لو أنى أتيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدى، فلقيه، فقال: يا محمد، إنى أرقى من هذا الريح، فهل لك؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. أما بعد**».

فقال: أعد عليّ كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات، فقال: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن قاموس[٣] البحر، هات يدك أبايعك على الإسلام، فبايعه[٤].

ست نسمات طيبة من أهل يثرب:

وفى موسم الحج من سنة ١١ من النبوة - يوليو سنة ٦٢٠م - وجدت الدعوة الإسلامية بذورًا صالحة، سرعان ما تحولت إلى شجرات باسقات، اتقى المسلمون فى ظلالها الوارفة لفحات الظلم والعدوان حتى تغير مجرى الأحداث، وتحول خط التاريخ.

وكان من حكمته ﷺ إزاء ما كان يلقى من أهل مكة من التكذيب والصد عن سبيل

---

(١) بل وبعد الحديبية، فقد قدم المدينة ورسول الله ﷺ بخيبر. انظر: ابن هشام ١/ ٣٨٥.

(٢) ابن هشام ١/ ٣٨٢- ٣٨٥.

(٣) أبعد موضع فيه غورا.

(٤) رواه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، ح ٤٦ (٨٦٨).

الله، أنه كان يخرج إلى القبائل فى ظلام الليل، حتى لا يحول بينه وبينهم أحد من أهل مكة المشركين.

فخرج ليلة ومعه أبو بكر وعلى، فمر على منازل ذُهْل وشيبان بن ثعلبة، وكلمهم فى الإسلام. وقد دارت بين أبى بكر وبين رجل من ذهل أسئلة وردود طريفة، وأجاب بنو شيبان بأرجى الأجوبة، غير أنهم توقفوا فى قبول الإسلام[(١)].

ثم مر رسول الله ﷺ بعقبة منى، فسمع أصوات رجال يتكلمون فعمدهم حتى لحقهم، وكانوا ستة نفر من شباب يثرب كلهم من الخزرج، وهم:

١ - أسعد بن زُرَارة (من بنى النجار).

٢ - عوف بن الحارث بن رفاعة ابن عَفْراء (من بنى النجار).

٣ - رافع بن مالك بن العَجْلان (من بنى زُرَيْق).

٤ - قُطْبَة بن عامر بن حديدة (من بنى سلمة).

٥ - عُقْبَة بن عامر بن نابى (من بنى حَرَام بن كعب).

٦ - جابر بن عبد الله بن رِئاب (من بنى عبيد بن غَنْم).

وكان من سعادة أهل يثرب أنهم كانوا يسمعون من حلفائهم من يهود المدينة، إذا كان بينهم شيء، أن نبيًّا من الأنبياء مبعوث فى هذا الزمان سيخرج، فنتبعه، ونقتلكم معه قتل عاد وإرم[(٢)].

فلما لحقهم رسول الله ﷺ قال لهم: «**من أنتم؟**» قالوا: نفر من الخزرج، قال: «**من موالى اليهود؟**» أى: حلفائهم، قالوا: نعم. قال: «**أفلا تجلسون أكلمكم؟**» قالوا: بلى، فجلسوا معه، فشرح لهم حقيقة الإسلام ودعوته، ودعاهم إلى الله عز وجل، وتلا عليهم القرآن. فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله يا قوم، إنه للنبى الذى توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه، فأسرعوا إلى إجابة دعوته، وأسلموا.

وكانوا من عقلاء يثرب، أنهكتهم الحرب الأهلية التى مضت قريبًا، والتى لا يزال لهيبها مستعرًا، فأملوا أن تكون دعوته سببًا لوضع الحرب، فقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم،

(١) انظر: مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى، ص ١٥٠ - ١٥٢.

(٢) زاد المعاد ٢/ ٥٠، وابن هشام ١/ ٤٢٩، ٤٤١.

obeikandl.com

فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك.

ولما رجع هؤلاء إلى المدينة حملوا إليها رسالة الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيه ذكر رسول الله ﷺ[١].

استطراد - زواج رسول الله ﷺ بعائشة:

وفى شوال من هذه السنة - سنة ١١ من النبوة - تزوج رسول الله ﷺ عائشة الصديقة رضي الله عنها وهى بنت ست سنين، وبنى بها بالمدينة فى شوال فى السنة الأولى من الهجرة وهى بنت تسع سنين[٢].

(١) ابن هشام ١/ ٤٢٨- ٤٣٠.

(٢) تلقيح فهوم أهل الأثر، ص ١٠، وصحيح البخارى ١/ ٥٥١.

obeikandl.com

الإسراء والمعراج

وبينما النبى ﷺ يمر بهذه المرحلة، وأخذت الدعوة تشق طريقًا بين النجاح والاضطهاد، وبدأت نجوم الأمل تتلمح فى آفاق بعيدة- وقع حادث الإسراء والمعراج.

واختلف فى تعيين زمنه على أقوال شتى:

١ - فقيل: كان الإسراء فى السنة التى أكرمه الله فيها بالنبوة، واختاره الطبرى.

٢ - وقيل: كان بعد المبعث بخمس سنين، رجح ذلك النووى والقرطبى.

٣ - وقيل: كان ليلة السابع والعشرين من شهر رجب سنة ١٠ من النبوة.

٤ - وقيل: قبل الهجرة بستة عشر شهرًا، أى فى رمضان سنة ١٢ من النبوة.

٥ - وقيل: قبل الهجرة بسنة وشهرين، أى فى المحرم سنة ١٣ من النبوة.

٦ - وقيل: قبل الهجرة بسنة، أى فى ربيع الأول سنة ١٣ من النبوة.

وَرُدَّتِ الأقوالُ الثلاثة الأول بأن خديجة رضى الله عنها توفيت فى رمضان سنة عشر من النبوة، وكانت وفاتها قبل أن تفرض الصلوات الخمس. ولا خلاف أن فرض الصلوات الخمس كان ليلة الإسراء. أما الأقوال الثلاثة الباقية فلم أجد ما أرجح به واحدًا منها، غير أن سياق سورة الإسراء يدل على أن الإسراء متأخر جدًّا.

وروى أئمة الحديث تفاصيل هذه الوقعة، وفيما يلى نسردها بإيجاز:

قال ابن القيم: أسرى برسول الله ﷺ بجسده على الصحيح من المسجد الحرام إلى بيت المقدس، راكبًا على البُرَاق، صحبة جبريل -عليهما الصلاة والسلام- فنزل هناك، وصلى بالأنبياء إمامًا، وربط البراق بحلقة باب المسجد.

ثم عرج به تلك الليلة من بيت المقدس إلى السماء الدنيا، فاستفتح له جبريل ففتح له، فرأى هنالك آدم أبا البشر، فسلم عليه، فرحب به ورد عليه السلام، وأقر بنبوته، وأراه الله أرواح السعداء عن يمينه، وأرواح الأشقياء عن يساره.

ثم عرج به إلى السماء الثانية، فاستفتح له، فرأى فيها يحيى بن زكريا وعيسى ابن مريم، فلقيهما وسلم عليهما، فردا عليه ورحبا به، وأقرّا بنبوته.

ثم عرج به إلى السماء الثالثة، فرأى فيها يوسف، فسلم عليه فرد عليه ورحب به، وأقر بنبوته.

ثم عرج به إلى السماء الرابعة، فرأى فيها إدريس، فسلم عليه، فرد عليه، ورحب به، وأقر بنبوته.

ثم عرج به إلى السماء الخامسة، فرأى فيها هارون بن عمران، فسلم عليه، فرد عليه ورحب به، وأقر بنبوته.

ثم عرج به إلى السماء السادسة، فلقى فيها موسى بن عمران، فسلم عليه، فرد عليه ورحب به، وأقر بنبوته.

فلما جاوزه بكى موسى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أبكى؛ لأن غلامًا بعث من بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتى.

ثم عرج به إلى السماء السابعة، فلقى فيها إبراهيم عليه السلام، فسلم عليه، فرد عليه، ورحب به، وأقر بنبوته.

ثم رفع إلى سدرة المنتهى، فإذا نَبْقُها مثل قِلاَل هَجَر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، ثم غشيها فراش من ذهب، ونور وألوان، فتغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن يصفها من حسنها. ثم رفع له البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون. ثم أدخل الجنة، فإذا فيها حبائل اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك. وعرج به حتى ظهر لمستوى يسمع فيه صَرِيف الأقلام.

ثم عرج به إلى الجبّار جل جلاله، فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى، وفرض عليه خمسين صلاة، فرجع حتى مرّ على موسى فقال له: بم أمرك ربك؟ قال: «**بخمسين صلاة**». قال: إن أمتك لا تطيق ذلك، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فالتفت إلى جبريل، كأنه يستشيره فى ذلك، فأشار: أن نعم إن شئت، فعلا به جبريل حتى أتى به الجبار تبارك وتعالى، وهو فى مكانه – هذا لفظ البخارى فى بعض الطرق – فوضع عنه عشرًا، ثم أنزل حتى مر بموسى، فأخبره، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله عز وجل، حتى جعلها خمسًا، فأمره موسى بالرجوع وسؤال التخفيف، فقال: «**قد استحييت من ربى، ولكنى أرضى وأسلم**»، فلما بعد نادى مناد: قد أمضيت فريضتى، وخففت عن عبادى. انتهى[(١)].

ثم ذكر ابن القيم خلافًا فى رؤيته ﷺ ربه تبارك وتعالى، ثم ذكر كلامًا لابن تيمية بهذا الصدد، وحاصل البحث أن الرؤية بالعين لم تثبت أصلًا، وهو قول لم يقله أحد من الصحابة.

(١) زاد المعاد ٢/ ٤٧، ٤٨، مع زيادات ثبتت فى الروايات الصحيحة.

وما نقل عن ابن عباس من رؤيته مطلقًا ورؤيته بالفؤاد، فالأول لا ينافى الثانى.

ثم قال: وأما قوله تعالى فى سورة النجم:] Z E D CB [[النجم] فهو غير الدنو الذى فى قصة الإسراء، فإن الذى فى سورة النجم هو دنو جبريل وتدليه، كما قالت عائشة وابن مسعود، والسياق يدل عليه، وأما الدنو والتدلى فى حديث الإسراء فذلك صريح فى أنه دنو الرب تبارك وتعالى وتدليه، ولا تعرض فى سورة النجم لذلك، بل فيه أنه رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى. وهذا هو جبريل، رآه محمد ﷺ على صورته مرتين: مرة فى الأرض، ومرة عند سدرة المنتهى، والله أعلم. انتهى[(١)].

وقد جاء فى بعض الطرق أن صدره ﷺ شق فى هذه المرة أيضًا، وقد رأى النبى ﷺ فى هذه الرحلة أمورًا عديدة:

- عرض عليه اللبن والخمر، فاختار اللبن، فقيل: هديت الفطرة أو أصبت الفطرة، أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك.

- ورأى أربعة أنهار يخرجن من أصل سدرة المنتهى: نهران ظاهران ونهران باطنان، فالظاهران هما: النيل والفرات، عنصرهما. والباطنان: نهران فى الجنة. ولعل رؤية النيل والفرات كانت إشارة إلى تمكن الإسلام من هذين القطرين، والله أعلم.

- ورأى مالكًا خازن النار، وهو لا يضحك، وليس على وجهه بشر ولا بشاشة، وكذلك رأى الجنة والنار.

- ورأى أكلة أموال اليتامى ظلمًا لهم مشافر كمشافر الإبل، يقذفون فى أفواههم قطعًا من نار كالأفهار، فتخرج من أدبارهم.

- ورأى أكلة الربا لهم بطون كبيرة لا يقدرون لأجلها أن يتحولوا عن أماكنهم، ويمر بهم آل فرعون حين يعرضون على النار فيطأونهم.

- ورأى الزناة بين أيديهم لحم سمين طيب، إلى جنبه لحم غث منتن، يأكلون من الغث المنتن، ويتركون الطيب السمين.

- ورأى النساء اللاتى يدخلن على الرجال من ليس من أولادهم، رآهن معلقات بثديهن.

---

(١) زاد المعاد ٢/ ٤٧، ٤٨، وانظر: صحيح البخارى ١/ ٥٠، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٨١، ٥٤٨- ٥٥٠، ٢/ ٦٨٤، وصحيح مسلم ١/ ٩١- ٩٦.

- ورأى عيرًا من أهل مكة فى الإياب والذهاب، وقد دلهم على بعير نَدَّ لهم، وشرب ماءهم من إناء مغطى وهم نائمون، ثم ترك الإناء مغطى، وقد صار ذلك دليلًا على صدق دعواه فى صباح ليلة الإسراء[١].

قال ابن القيم: فلما أصبح رسول الله ﷺ فى قومه أخبرهم بما أراه الله عز وجل من آياته الكبرى، فاشتد تكذيبهم له وأذاهم واستضرارهم عليه، وسألوه أن يصف لهم بيت المقدس، فجلاه الله له، حتى عاينه، فطفق يخبرهم عن آياته، ولا يستطيعون أن يردوا عليه شيئًا، وأخبرهم عن عيرهم فى مسراه ورجوعه، وأخبرهم عن وقت قدومها، وأخبرهم عن البعير الذى يقدمها، وكان الأمر كما قال، فلم يزدهم ذلك إلا نفورًا، وأبى الظالمون إلا كفورًا[٢].

يقال: سُمى أبو بكر رضي الله عنه صديقًا؛ لتصديقه هذه الوقعة حين كذبها الناس[٣].

وأوجز وأعظم ما ورد فى تعليل هذه الرحلة هو قوله تعالى:] / 0 1 Z [الإسراء:١] وهذه سنة الله فى الأنبياء، قال:] 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; Z [الأنعام]،وقال لموسى عليه السلام:] لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ Z [طه]، وقد بين مقصود هذه الإراءة بقوله:] 8 9 : Z، فبعد استناد علوم الأنبياء إلى رؤية الآيات يحصل لهم من عين اليقين ما لا يقادر قدره، وليس الخبر كالمعاينة، فيتحملون فى سبيل الله ما لا يتحمل غيرهم، وتصير جميع قوات الدنيا عندهم كجناح بعوضة لا يعبأون بها إذا ما تدول عليهم بالمحن والعذاب.

والحكم والأسرار التى تكمن وراء جزئيات هذه الرحلة إنما محل بحثها كتب أسرار الشريعة، ولكن هنا حقائق بسيطة تتفجر من ينابيع هذه الرحلة المباركة، وتتدفق إلى حدائق أزهار السيرة النبوية - على صاحبها الصلاة والسلام والتحية - أرى أن أسجل بعضًا منها بالإيجاز:

يرى القارئ فى سورة الإسراء أن الله ذكر قصة الإسراء فى آية واحدة فقط، ثم أخذ فى ذكر فضائح اليهود وجرائمهم، ثم نبههم بأن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم، فربما

(١) المصادر السابقة، وابن هشام ١/ ٣٩٧، ٤٠٢- ٤٠٦.

(٢) زاد المعاد ١/ ٤٨، وأنظر أيضًا: صحيح البخارى ٢/ ٦٨٤، وصحيح ١/ ٩٦، وابن هشام ١/ ٤٠٢،٤٠٣.

(٣) ابن هشام ١/ ٣٩٩.

يظن القارئ أن الآيتين ليس بينهما ارتباط، والأمر ليس كذلك، فإن الله تعالى يشير بهذا الأسلوب إلى أن الإسراء إنما وقع إلى بيت المقدس؛ لأن اليهود سيعزلون عن منصب قيادة الأمة الإنسانية؛ لما ارتكبوا من الجرائم التى لا مجال بعدها لبقائهم على هذا المنصب، وإن الله سينقل هذا المنصب فعلا إلى رسوله ﷺ، ويجمع له مركزى الدعوة الإبراهيمية كليهما، فقد آن أوان انتقال القيادة الروحية من أمة إلى أمة؛ من أمة ملأت تاريخها بالغدر والخيانة والإثم والعدوان، إلى أمة تتدفق بالبر والخيرات، ولا يزال رسولها يتمتع بوحى القرآن الذى يهدى للتى هى أقوم.

ولكن كيف تنتقل هذه القيادة، والرسول يطوف فى جبال مكة مطرودًا بين الناس؟ هذا السؤال يكشف الغطاء عن حقيقة أخرى، وهى أن عهدًا من هذه الدعوة الإسلامية قد أوشك إلى النهاية والتمام، وسيبدأ عهد آخر جديد يختلف عن الأول فى مجراه، ولذلك نرى بعض الآيات تشتمل على إنذار سافر ووعيد شديد بالنسبة إلى المشركين] Â Á ÕÔ Ó Ò Ñ Ð Ï Î Í Ì Ë Ê É È Ç Æ Å Ä Ã ÖØ Ù Ú Û Ü Ý Þ Z [الإسراء] وبجنب هذه الآيات آيات أخرى تبين للمسلمين قواعد الحضارة وبنودها ومبادئها التى يبتنى عليها مجتمعهم الإسلامى، كأنهم قد أووا إلى أرض وامتلكوا فيها أمورهم من جميع النواحى، وكونوا وحدة متماسكة تدور عليها رحى المجتمع، ففيه إشارة إلى أن الرسول ﷺ سيجد ملجأ ومأمنًا يستقر فيه أمره، ويصير مركزًا لبث دعوته فى أرجاء الدنيا. هذا سر من أسرار هذه الرحلة المباركة، يتصل ببحثنا فآثرنا ذكره.

ولأجل هذه الحكمة وأمثالها نرى أن الإسراء إنما وقع إما قبيل بيعة العقبة الأولى أو بين العقبتين، والله أعلم.

بيعة العقبة الأولى

قد ذكرنا أن ستة نفر من أهل يثرب أسلموا فى موسم الحج سنة ١١ من النبوة، ووعدوا رسول الله ﷺ بإبلاغ رسالته فى قومهم.

وكان من جراء ذلك أن جاء فى الموسم التالى – موسم الحج سنة ١٢ من النبوة، يوليو سنة ٦٢١م – اثنا عشر رجلًا، فيهم خمسة من الستة الذين كانوا قد التقوا برسول الله ﷺ فى العام السابق – والسادس الذى لم يحضر هو جابر بن عبد الله بن رِئاب – وسبعة سواهم، وهم:

١ – معاذ بن الحارث، ابن عفراء، من بنى النجار (من الخزرج).

٢ – ذَكْوَان بن عبد القيس، من بنى زُرَيْق. (من الخزرج).

٣ – عبادة بن الصامت، من بنى غَنْم (من الخزرج).

٤ – يزيد بن ثعلبة، من حلفاء بنى غنم (من الخزرج).

٥ – العباس بن عُبَادة بن نَضْلَة، من بنى سالم (من الخزرج).

٦ – أبو الهَيْثَم بن التَّيِّهَان، من بنى عبد الأشهل (من الأوس).

٧ – عُوَيْم بن ساعدة، من بنى عمرو بن عَوْف (من الأوس).

الأخيران من الأوس، والبقية كلهم من الخزرج[(١)].

التقى هؤلاء برسول الله ﷺ عند العقبة بمنى فبايعوه بيعة النساء، أى وفق بيعتهن التى نزلت بعد الحديبية.

روى البخارى عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «**تعالوا بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصونى فى معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب به فى الدنيا، فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله، فأمره إلى الله؛ إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه**». قال: فبايعته – وفى نسخة: فبايعناه – على

(١) ابن هشام ١/ ٤٣١– ٤٣٣.

ذلك[١].

سفير الإسلام فى المدينة:

وبعد أن تمت البيعة وانتهى الموسم، بعث النبى ﷺ مع هؤلاء المبايعين أول سفير فى يثرب؛ ليعلم المسلمين فيها شرائع الإسلام، ويفقههم فى الدين، وليقوم بنشر الإسلام بين الذين لم يزالوا على الشرك، واختار لهذه السفارة شابًّا من شباب الإسلام من السابقين الأولين، وهو مُصْعَب بن عُمَيْر العبدرى رضي الله عنه.

النجاح المغتبط:

نزل مصعب بن عمير على أسعد بن زُرَارة، وأخذا يبثان الإسلام فى أهل يثرب بجد وحماس، وكان مصعب يُعْرَف بالمقرئ.

ومن أروع ما يروى من نجاحه فى الدعوة أن أسعد بن زرارة خرج به يومًا يريد دار بنى عبد الأشهل ودار بنى ظَفَر، فدخلا فى حائط من حوائط بنى ظفر، وجلسا على بئر يقال لها: بئر مَرَق، واجتمع إليهما رجال من المسلمين - وسعد بن معاذ وأُسَيْد بن حُضَيْر سيدا قومهما من بنى عبد الأشهل يومئذ على الشرك - فلما سمعا بذلك قال سعد لأسيد: اذهب إلى هذين اللذين قد أتيا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما، وانههما عن أن يأتيا دارينا، فإن أسعد ابن زرارة ابن خالتى، ولولا ذلك لكفيتك هذا.

فأخذ أسيد حربته وأقبل إليهما، فلما رآه أسعد قال لمصعب: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمه. وجاء أسيد فوقف عليهما متشتمًا، وقال: ما جاء بكما إلينا؟ تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرا قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره، فقال: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس، فكلمه مصعب بالإسلام، وتلا عليه القرآن. قال: فو الله لعرفنا فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، فى إشراقه وتهلله، ثم قال: ما أحسن هذا وأجمله؟ كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين؟

قالا له: تغتسل، وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى ركعتين. فقام واغتسل، وطهر ثوبه وتشهد وصلى ركعتين، ثم قال: إن ورائى رجلًا إن تبعكما لم يتخلف

(١) صحيح البخارى: باب علامة الإيمان حب الأنصار ١/ ٧، باب وفود الأنصار ١/ ٥٥٠، ٥٥١، واللفظ من هذا الباب، وباب قوله تعالى:] # $ % Z ٢/ ٧٢٧، باب الحدود كفارة ٢/ ١٠٠٣.

عنه أحد من قومه، وسأرشده إليكما الآن - سعد بن معاذ - ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد فى قومه، وهم جلوس فى ناديهم. فقال سعد: أحلف بالله لقد جاءكم بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم.

فلما وقف أسيد على النادى قال له سعد: ما فعلت؟ فقال: كلمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأسًا، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت.

وقد حدثت أن بنى حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه - وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك - لِيُخْفِرُوك. فقام سعد مغضبًا للذى ذكر له، فأخذ حربته، وخرج إليهما، فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيدًا إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتمًا، ثم قال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أمامة، لولا ما بينى وبينك من القرابة ما رُمْتَ هذا منى، تغشانا فى دارنا بما نكره؟

وقد كان أسعد قال لمصعب: جاءك والله سيد من ورائه قومه، إن يتبعك لم يتخلف عنك منهم أحد، فقال مصعب لسعد بن معاذ: أو تقعد فتسمع؟ فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره، قال: قد أنصفت، ثم ركز حربته فجلس. فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، قال: فعرفنا والله فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، فى إشراقه وتهلّله، ثم قال: كيف تصنعون إذا أسلمتم؟ قالا: تغتسل، وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى ركعتين. ففعل ذلك.

ثم أخذ حربته فأقبل إلى نادى قومه، فلما رأوه قالوا: نحلف بالله لقد رجع بغير الوجه الذى ذهب به.

فلما وقف عليهم قال: يا بنى عبد الأشهل، كيف تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيًا، وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علىّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله. فما أمسى فيهم رجل ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمة، إلا رجل واحد - وهو الأُصَيْرِم - تأخر إسلامه إلى يوم أحد، فأسلم ذلك اليوم وقاتل وقتل، ولم يسجد لله سجدة، فقال النبى ﷺ: «عمل قليلًا وأجر كثيرًا».

وأقام مصعب فى بيت أسعد بن زرارة يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان من دار بنى أمية بن زيد وخَطْمَة ووائل. كان فيهم قيس بن الأسلت الشاعر - وكانوا يطيعونه - فوقف بهم عن الإسلام حتى كان عام الخندق سنة خمس من الهجرة.

وقبل حلول موسم الحج التالى - أى حج السنة الثالثة عشرة - عاد مصعب بن عمير إلى مكة يحمل إلى رسول الله ﷺ بشائر الفوز، ويقص عليه خبر قبائل يثرب، وما فيها من مواهب الخير، وما لها من قوة ومنعة[1].

(١) ابن هشام ١/ ٤٣٥- ٤٣٨ و ٢/ ٩٠، وزاد المعاد ٢/ ٥١.

obeikandl.com

بيعة العقبة الثانية

فى موسم الحج فى السنة الثالثة عشرة من النبوة - يونيو سنة ٦٢٢م - حضر لأداء مناسك الحج بضع وسبعون نفسًا من المسلمين من أهل يثرب،جاءوا ضمن حجاج قومهم من المشركين، وقد تساءل هؤلاء المسلمون فيما بينهم - وهم لم يزالوا فى يثرب أو كانوا فى الطريق: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطوف ويطرد فى جبال مكة ويخاف؟

فلما قدموا مكة جرت بينهم وبين النبى ﷺ اتصالات سرية أدت إلى اتفاق الفريقين على أن يجتمعوا فى أوسط أيام التشريق فى الشعب الذى عند العقبة حيث الجمرة الأولى من منى، وأن يتم الاجتماع فى سرية تامة فى ظلام الليل.

ولنترك أحد قادة الأنصار يصف لنا هذا الاجتماع التاريخى الذى حول مجرى الأيام فى صراع الوثنية والإسلام. يقول كعب بن مالك الأنصارى رضي الله عنه:

خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ﷺ بالعقبة من أوسط أيام التشريق، فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التى واعدنا رسول الله ﷺ لها، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حَرَام أبو جابر، سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، أخذناه معنا - وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا - فكلمناه وقلنا له: يا أبا جابر، إنك سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبا للنار غدًا. ثم دعوناه إلى الإسلام، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة، قال: فأسلم وشهد معنا العقبة وكان نقيبًا.

قال كعب: فنمنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ، نتسلل تسلل القَطَا، مستخفين، حتى اجتمعنا فى الشِّعْب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلًا، وامرأتان من نسائنا؛ نُسَيْبَة بنت كعب - أم عُمَارة - من بنى مازن بن النجار،وأسماء بنت عمرو - أم منيع - من بنى سلمة.

فاجتمعنا فى الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا، ومعه عمه: العباس بن عبد المطلب - وهو يومئذ على دين قومه - إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له، وكان أول متكلم[1].

(١) ابن هشام ١/ ٤٤٠،٤٤١.

بداية المحادثة وتشريح العباس لخطورة المسئولية:

وبعد أن تكامل المجلس بدأت المحادثات لإبرام التحالف الدينى والعسكرى، وكان أول المتكلمين هو العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، تكلم ليشرح لهم - بكل صراحة - خطورة المسئولية التى ستلقى على كواهلهم نتيجة هذا التحالف. قال:

يا معشر الخزرج - وكان العرب يسمون الأنصار خزرجًا، خزرجها وأوسها كليهما - إن محمدًا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه،فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده. وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك. وإن كنتم ترون أنكم مُسْلِمُوه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه. فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده.

قال كعب: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت[(١)].

وهذا الجواب يدل على ما كانوا عليه من عزم صميم، وشجاعة مؤمنة، وإخلاص كامل فى تحمل هذه المسئولية العظيمة، وتحمل عواقبها الخطيرة.

وألقى رسول الله ﷺ بعد ذلك بيانه، ثم تمت البيعة.

بنود البيعة:

وقد روى ذلك الإمام أحمد عن جابر مفصلًا. قال جابر: قلنا: يا رسول الله، علام نبايعك؟ قال:

«على السمع والطاعة فى النشاط والكسل.

وعلى النفقة فى العسر واليسر.

وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وعلى أن تقوموا فى الله، لا تأخذكم فى الله لومة لائم.

وعلى أن تنصرونى إذا قدمت إليكم، وتمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة»[(٢)].

---

(١) ابن هشام ١/ ٤٤١، ٤٤٢.

(٢) رواه الإمام أحمد بإسناد حسن ٣/ ٣٢٢، والبيهقى فى السنن الكبرى ٩/ ٩، وصححه الحاكم وابن حبان، وروى ابن إسحاق ما يشبه هذا عن عبادة بن الصامت، وفيه بند زائد، وهو: « ألا ننازع الأمر أهله». انظر: ابن هشام ١/ ٤٥٤.

وفى رواية كعب – التى رواها ابن إسحاق – البند الأخير فقط من هذه البنود، ففيه: قال كعب: فتكلم رسول الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب فى الإسلام، ثم قال: **«أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نسائكم وأبناءكم»**. فأخذ البراء بن مَعْرُور بيده ثم قال: نعم، والذى بعثك بالحق نبيًا، لنمنعنك مما نمنع أُزُرَنا منه، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحرب وأهل الْحَلْقَة، ورثناها كابرًا عن كابر.

قال: فاعترض القول – والبراء يكلم رسول الله ﷺ – أبو الهيثم بن التَّيِّهَان، فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالًا، وإنا قاطعوها – يعنى اليهود – فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله إن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

قال: فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال: **«بل الدَّمُ الدَّمُ، والهَدْمُ الْهَدْمُ، أنا منكم وأنتم منى، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم»**[(١)].

التأكيد من خطورة البيعة:

وبعد أن تمت المحادثة حول شروط البيعة، وأجمعوا على الشروع فى عقدها، قام رجلان من الرعيل الأول ممن أسلموا فى مواسم سنتى ١١ و ١٢ من النبوة، قام أحدهما تلو الآخر؛ ليؤكدا للقوم خطورة المسئولية، حتى لا يبايعوه إلا على جلية من الأمر، وليعرفا مدى استعداد القوم للتضحية، ويتأكدا من ذلك.

قال ابن إسحاق: لما اجتمعوا للبيعة قال العباس بن عبادة بن نَضْلَة: هل تدورن علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس. فإن كنتم ترون أنكم إذا نَهَكَتْ أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلا أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة. وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نَهْكَة الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة.

قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك؟ قال: «الجنة». قالوا: ابسط يدك، فبسط يده، فبايعوه[(٢)].

وفى رواية جابر (قال): فقمنا نبايعه،فأخذ بيده أسعد بن زرارة – وهو أصغر السبعين – فقال: رويدا يا أهل يثرب، إنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم

(١) ابن هشام ١/ ٤٤٢. وأزرنا: جمع إزار، كناية عن المرأة وعن النفس.
(٢) ابن هشام ١/ ٤٤٦.

تصبرون على ذلك فخذوه، وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو أعذر لكم عند الله[١].

عقد البيعة:

وبعد إقرار بنود البيعة، وبعد هذا التأكيد والتأكد، بدأ عقد البيعة بالمصافحة، قال جابر - بعد أن حكى قول أسعد بن زرارة - قال: فقالوا: يا أسعد، أمِطْ عنا يدك. فوالله لا نذر هذه البيعة، ولا نستقيلها[٢].

وحينئذ عرف أسعد مدى استعداد القوم للتضحية فى هذا السبيل وتأكد منه - وكان هو الداعية الكبير مع مصعب بن عمير - فكان هو السابق إلى هذه البيعة. قال ابن إسحاق: فبنو النجار يزعمون أن أبا أمامة أسعد بن زرارة كان أول من ضرب على يده[٣]. وبعد ذلك بدأت البيعة العامة، قال جابر: فقمنا إليه رجلًا رجلًا فأخذ علينا البيعة، يعطينا بذلك الجنة[٤].

وأما بيعة المرأتين اللتين شهدتا الوقعة فكانت قولًا. ما صافح رسول الله ﷺ امرأة أجنبية قط[٥].

اثنا عشر نقيبًا:

وبعد أن تمت البيعة، طلب رسول الله ﷺ أن يختاروا اثنى عشر زعيمًا يكونون نقباء على قومهم، يكفلون المسئولية عنهم فى تنفيذ بنود هذه البيعة، فقال للقوم: **«أخرجوا إلىّ منكم اثنى عشر نقيبًا ليكونوا على قومهم بما فيهم»**.

فتم اختيارهم فى الحال، وكانوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس. وهاك أسماءهم:

نقباء الخزرج:

١- أسعد بن زُرَارَة بن عدس.

(٣، ٤) رواه الإمام أحمد من حديث جابر ٣/ ٣٢٢، والبيهقى فى السنن الكبرى ٩/ ٩.

(٣) قال ابن إسحاق: وبنو عبد الأشهل يقولون: بل أبو الهيثم بن التيهان، وقال كعب بن مالك: بل البراء بن معرور (ابن هشام ١/ ٤٤٧). قلت: لعلهم حسبوا ما دار بينهم، وبين الرسول ﷺ من الحوار بيعة وإلا فأحرى الناس بالتقديم إذ ذاك هو أسعد بن زرارة، والله أعلم.

(٤) مسند الإمام أحمد ٣/ ٣٢٢.

(٥) انظر: صحيح مسلم: باب كيفية بيعة النساء ٢/ ١٣١.

٢- سعد بن الرَّبِيع بن عمرو.

٣- عبد الله بن رواحة بن ثعلبة.

٤- رافع بن مالك بن العَجْلان.

٥- البراء بن مَعْرُور بن صَخْر.

٦- عبد الله بن عمرو بن حَرَام.

٧- عبادة بن الصامت بن قيس.

٨ - سعد بن عبادة بن دُلَيْم.

٩- المنذر بن عمرو بن خُنَيْس.

نقباء الأوس:

١- أُسَيْد بن حُضَيْر بن سِمَاك.

٢- سعد بن خَيْثَمَة بن الحارث.

٣- رفاعة بن عبد المنذر بن زبير[(١)].

ولما تم اختيار هؤلاء النقباء أخذ عليهم النبى ﷺ ميثاقًا آخر بصفتهم رؤساء مسئولين.

قال لهم: «**أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء، ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومى**» - يعنى المسلمين - قالوا: نعم[(٢)].

شيطان يكتشف المعاهدة:

ولما تم إبرام المعاهدة، وكان القوم على وشك الارفضاض، اكتشفها أحد الشياطين؛ وحيث إن هذا الاكتشاف جاء فى اللحظة الأخيرة، ولم يكن يمكن إبلاغ زعماء قريش هذا الخبر سرًّا، ليباغتوا المجتمعين وهم فى الشعب، قام ذلك الشيطان على مرتفع من الأرض،وصاح بأنفذ صوت سمع قط: يا أهل الجَبَاجب - المنازل - هل لكم فى مُذَمَّم والصباة معه؟ قد اجتمعوا على حربكم.

فقال رسول الله ﷺ: «**هذا أَزَبُّ العقبة، أما والله يا عدو الله لأتفرغن لك**». ثم أمرهم

(١) زبير بالباء الموحدة، وقيل: بالنون. وقد قيل بدل رفاعة: أبو الهيثم بن التيهان.

(٢) ابن هشام ١/ ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٦.

أن ينفضوا إلى رحالهم[١].

استعداد الأنصار لضرب قريش:

وعند سماع صوت هذا الشيطان قال العباس بن عبادة بن نضلة: والذى بعثك بالحق، إن شئت لنميلن على أهل منى غدًا بأسيافنا.

فقال رسول الله ﷺ: «لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم»، فرجعوا وناموا حتى أصبحوا[٢].

قريش تقدم الاحتجاج إلى رؤساء يثرب:

لما قرع هذا الخبر آذان قريش وقعت فيهم ضجة، وساورتهم القلاقل والأحزان؛ لأنهم كانوا على معرفة تامة بعواقب مثل هذه البيعة ونتائجها بالنسبة إلى أنفسهم وأموالهم، فما أن أصبحوا حتى توجه وفد كبير من زعماء مكة وأكابر مجرميها إلى أهل يثرب؛ ليقدم احتجاجه الشديد على هذه المعاهدة، قال الوفد:

«يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم»[٣].

ولما كان مشركو الخزرج لا يعرفون شيئًا عن هذه البيعة؛ لأنها تمت فى سرية تامة فى ظلام الليل، انبعث هؤلاء المشركون يحلفون بالله: ما كان من شىء وما علمناه، حتى أتوا عبد الله بن أبى ابن سلول، فجعل يقول: هذا باطل، وما كان هذا،وما كان قومى ليفتاتوا على بمثل هذا، ولو كنت بيثرب ما صنع قومى هذا حتى يؤامرونى.

أما المسلمون فنظر بعضهم إلى بعض، ثم لاذوا بالصمت، فلم يتحدث أحد منهم بنفى أو إثبات.

ومال زعماء قريش إلى تصديق المشركين، فرجعوا خائبين.

تأكد الخبر لدى قريش ومطاردة المبايعين:

عاد زعماء مكة وهم على شبه اليقين من كذب هذا الخبر، لكنهم لم يزالوا يَتَنَطَّسُونه - يكثرون البحث عنه ويدققون النظر فيه - حتى تأكد لديهم أن الخبر صحيح، والبيعة

(١) ابن هشام ١/ ٤٤٧، وزاد المعاد ٢/ ٥١.
(٢،٣) ابن هشام ١/ ٤٤٨.

قد تمت فعلًا. وذلك بعد ما نفر الحجيج إلى أوطانهم، فسارع فرسانهم بمطاردة اليثربيين، ولكن بعد فوات الأوان، إلا أنهم تمكنوا من رؤية سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو فطاردوهما، فأما المنذر فأعجز القوم، وأما سعد فألقوا القبض عليه، فربطوا يديه إلى عنقه بنِسْع رَحْلِه، وجعلوا يضربونه ويجرونه ويجرون شعره حتى أدخلوه مكة، فجاء المطعم بن عدى والحارث بن حرب بن أمية فخلصاه من أيديهم؛ إذ كان سعد يجير لهما قوافلهما المارة بالمدينة، وتشاورت الأنصار حين فقدوه أن يكروا إليه، فإذا هو قد طلع عليهم، فوصل القوم جميعًا إلى المدينة[1].

هذه هى بيعة العقبة الثانية – التى تعرف ببيعة العقبة الكبرى – وقد تمت فى جو تعلوه عواطف الحب والولاء، والتناصر بين أشتات المؤمنين، والثقة والشجاعة والاستبسال فى هذا السبيل. فمؤمن من أهل يثرب يحنو على أخيه المستضعف فى مكة، ويتعصب له،ويغضب من ظالمه، وتجيش فى حناياه مشاعر الود لهذا الأخ الذى أحبه بالغيب فى ذات الله.

ولم تكن هذه المشاعر والعواطف نتيجة نزعة عابرة تزول على مر الأيام، بل كان مصدرها هو الإيمان بالله وبرسوله وبكتابه، إيمان لا يزول أمام أى قوة من قوات الظلم والعدوان، إيمان إذا هبت ريحه جاءت بالعجائب فى العقيدة والعمل، وبهذا الإيمان استطاع المسلمون أن يسجلوا على أوراق الدهر أعمالًا، ويتركوا عليها آثارًا خلا عن نظائرها الغابر والحاضر، وسوف يخلو المستقبل.

(١) زاد المعاد ٢/ ٥١، ٥٢، وابن هشام ١/ ٤٤٨- ٤٥٠.

طلائع الهجرة

وبعد أن تمت بيعة العقبة الثانية ونجح الإسلام فى تأسيس وطن له وسط صحراء تموج بالكفر والجهالة - وهو أخطر كسب حصل عليه الإسلام منذ بداية دعوته - أذن رسول الله ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى هذا الوطن.

ولم يكن معنى الهجرة إلا إهدار المصالح، والتضحية بالأموال، والنجاة بالشخص فحسب، مع الإشعار بأنه مستباح منهوب قد يهلك فى أوائل الطريق أو نهايتها، وبأنه يسير نحو مستقبل مبهم، لا يدرى ما يتمخض عنه من قلاقل وأحزان.

وبدأ المسلمون يهاجرون وهم يعرفون كل ذلك، وأخذ المشركون يحولون بينهم وبين خروجهم؛ لما كانوا يحسون به من الخطر، وهاك نماذج من ذلك:

١ - كان من أول المهاجرين أبو سلمة - هاجر قبل العقبة الكبرى بسنة على ما قاله ابن إسحاق - وزوجته وابنه، فلما أجمع على الخروج قال له أصهاره: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه؟ علام نتركك تسير بها فى البلاد؟ فأخذوا منه زوجته، وغضب آل أبى سلمة لرجلهم،فقالوا: لا نترك ابننا معها إذ نزعتموها من صاحبنا، وتجاذبوا الغلام بينهم فخلعوا يده، وذهبوا به. وانطلق أبو سلمة وحده إلى المدينة.

وكانت أم سلمة رضي الله عنها -و بعد ذهاب زوجها وضياع ابنها- تخرج كل غداة بالأبطح تبكى حتى تمسى، ومضى على ذلك نحو سنة، فرق لها أحد ذويها وقال: ألا تخرجون هذه المسكينة؟ فرقتم بينها وبين زوجها وولدها، فقالوا لها: الحقى بزوجك إن شئت، فاسترجعت ابنها من عصبته، وخرجت تريد المدينة - رحلة تبلغ حوالى خمسمائة كيلو متر تمر بين شواهق الجبال ومهالك الأودية - وليس معها أحد من خلق الله. حتى إذا كانت بالتَّنْعِيم لقيها عثمان بن طلحة بن أبى طلحة، وبعد أن عرف حالها شيعها حتى أقدمها إلى المدينة، فلما نظر إلى قباء، قال: زوجك فى هذه القرية فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعًا إلى مكة[1].

٢ - وهاجر صُهَيْب بن سِنان الرومى بعد رسول الله ﷺ، فلما أراد الهجرة قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكًا حقيرًا، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذى بلغت، ثم تريد أن تخرج

(١) ابن هشام ١/ ٤٦٨- ٤٧٠.

بمالك ونفسك؟ والله لا يكون ذلك. فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالى أتخلون سبيلى؟ قالوا: نعم، قال: فأنى قد جعلت لكم مالى، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «ربح صهيب، ربح صهيب»[١].

٣ - وتواعد عمر بن الخطاب، وعَيَّاش بن أبى ربيعة، وهشام بن العاص بن وائل موضعًا اسمه التَّنَاضُب فوق سَرِف يصبحون عنده، ثم يهاجرون إلى المدينة، فاجتمع عمر وعياش، وحبس عنهما هشام.

ولما قدما المدينة ونزلا بقباء قدم أبو جهل وأخوه الحارث إلى عياش - وأم الثلاثة واحدة، وهى أسماء بنت مُخَرِّبَة - فقالا له: إن أمك قد نذرت ألا يمس رأسها مشط، ولا تستظل بشمس حتى تراك، فَرَقَّ لها. فقال له عمر: يا عياش، إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، فوالله لو آذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت، فأبى عياش إلا الخروج معهما ليبر قسم أمه، فقال له عمر: أما إذ قد فعلت ما فعلت فخذ ناقتى هذه، فإنها ناقة نجيبة ذلول، فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها.

فخرج عليها معهما، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل: يابن أمى، والله لقد استغلظت بعيرى هذا، أفلا تعقبنى على ناقتك هذه؟ قال: بلى، فأناخ وأناخا ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض عدوا عليه فأوثقاه وربطاه، ثم دخلا به مكة نهارًا موثقًا، وقالا: يا أهل مكة، هكذا فافعلوا بسفهائكم، كما فعلنا بسفيهنا هذا[٢].

هذه ثلاثة نماذج لما كان المشركون يفعلونه بمن يريد الهجرة إذا علموا ذلك. ولكن على رغم ذلك خرج الناس أرسالًا يتبع بعضهم بعضًا. وبعد شهرين وبضعة أيام من بيعة العقبة الكبرى لم يبق بمكة من المسلمين إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلى - أقاما بأمره لهما - وإلا من احتبسه المشركون كرهًا، وقد أعد رسول الله ﷺ جهازه ينتظر متى يؤمر

(١) المصدر السابق ١/ ٤٧٧.

(٢) بقى هشام وعياش فى قيد الكفار حتى إذا هاجر رسول الله ﷺ قال يوما: «من لى بعياش وهشام؟» فقال الوليد ابن الوليد: أنا لك يا رسول الله بهما، فقدم الوليد مكة مستخفيًا، ولقى امرأة تحمل إليهما طعامًا فتبعها حتى عرف موضعهما، وكانا محبوسين فى بيت لا سقف له، فلما أمسى تسور الجدار، وقطع قيديهما وحملهما على بعيره حتى قدم المدينة (انظر: ابن هشام ١/ ٤٧٤- ٤٧٦). وكان قدوم عمر المدينة فى عشرين من الصحابة (صحيح البخارى ١/ ٥٥٨).

بالخروج، وأعد أبو بكر جهازه[١].

روى البخارى عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ للمسلمين: «**إنى أريت دار هجرتكم، ذات نخل بين لابَتَيْن**» - وهما الحرتان - فهاجر من هاجر قبل المدينة، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة، وتجهز أبو بكر قبل المدينة، فقال له رسول الله ﷺ: «**على رِسْلِك، فإنى أرجو أن يؤذن لى**». فقال له أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبى أنت؟ قال: «**نعم**»، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السَّمَر - وهو الخَبَطُ - أربعة أشهر[٢].

(١) زاد المعاد ٢/ ٥٢.

(٢) صحيح البخارى: باب هجرة النبى ﷺ وأصحابه ١/ ٥٥٣.

obeikandl.com

فى دار الندوة «برلمان قريش»

ولما رأى المشركون أن أصحاب رسول الله ﷺ قد تجهزوا وخرجوا، وحملوا وساقوا الذرارى والأطفال والأموال إلى الأوس والخزرج، أصابتهم الكآبة والحزن، وساورهم القلق والهم بشكل لم يسبق له مثيل، فقد تجسد أمامهم خطر حقيقى عظيم، أخذ يهدد كيانهم الوثنى والاقتصادى.

فقد كانوا يعلمون ما فى شخصية محمد ﷺ من غاية قوة التأثير مع كمال القيادة والإرشاد، وما فى أصحابه من العزيمة والاستقامة والفداء فى سبيله، ثم ما فى قبائل الأوس والخزرج من القوة والمنعة، وما فى عقلاء هاتين القبيلتين من عواطف السلم والصلاح، والتداعى إلى نبذ الأحقاد، ولاسيما بعد أن ذاقوا مرارة الحروب الأهلية طيلة أعوام من الدهر.

كما كانوا يعرفون ما للمدينة من الموقع الاستراتيجى بالنسبة إلى المحجة التجارية التى تمر بساحل البحر الأحمر من اليمن إلى الشام. وقد كان أهل مكة يتاجرون إلى الشام بقدر ربع مليون دينار ذهب سنويًا، سوى ما كان لأهل الطائف وغيرها. ومعلوم أن مدار هذه التجارة كان على استقرار الأمن فى تلك الطريق.

فلا يخفى ما كان لقريش من الخطر البالغ فى تمركز الدعوة الإسلامية فى يثرب، ومجابهة أهلها ضدهم.

شعر المشركون بتفاقم الخطر الذى كان يهدد كيانهم، فصاروا يبحثون عن أنجح الوسائل لدفع هذا الخطر الذى مبعثه الوحيد هو حامل لواء دعوة الإسلام محمد ﷺ.

وفى يوم الخميس ٢٦ من شهر صفر سنة ١٤ من النبوة، الموافق ١٢ من شهر سبتمبر سنة ٦٢٢م [(١)] - أى: بعد شهرين ونصف تقريبًا من بيعة العقبة الكبرى - عقد برلمان مكة (دار الندوة) فى أوائل النهار [(٢)] أخطر اجتماع له فى تاريخه، وتوافد إلى هذا الاجتماع جميع نواب القبائل القرشية؛ ليتدارسوا خطة حاسمة تكفل القضاء سريعًا على حامل لواء

(١) أخذنا هذا التاريخ بعد مراجعة التحقيقات العلمية التى سجلها العلامة محمد سليمان المنصورفورى فى (رحمة للعالمين) ١/ ٩٥، ٩٧، ١٠٢، ٢/ ٤٧١.

(٢) يدل على انعقاد هذا الاجتماع فى أوائل النهار ما رواه ابن إسحاق: أن جبريل أخبر النبى ﷺ بمؤامرة هذا الاجتماع وأذن فى الهجرة. ثم ما رواه البخارى من حديث عائشة: أن النبى ﷺ جاء أبا بكر فى نحر الظهيرة وقال له: «قد أذن لى فى الخروج» وسيأتى.

الدعوة الإسلامية؛ وتقطع تيار نورها عن الوجود نهائيًا. وكانت الوجوه البارزة فى هذا الاجتماع الخطير من نواب قبائل قريش:

١ - أبو جهل بن هشام، عن قبيلة بنى مخزوم.

٢، ٣، ٤- جبير بن مُطْعِم، وطُعَيْمَة بن عدى، والحارث بن عامر، عن بنى نَوْفَل بن عبد مناف.

٥، ٦، ٧- شيبة وعتبة ابنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب، عن بنى عبد شمس بن عبد مناف.

٨ - النَّضْر بن الحارث، عن بنى عبد الدار.

٩، ١٠، ١١- أبو البَخْتَرِى بن هشام، وزَمْعَة بن الأسود، وحَكِيم بن حِزَام، عن بنى أسد ابن عبد العزى.

١٢، ١٣- نُبَيْه ومُنَبِّه ابنا الحجاج، عن بنى سهم.

١٤- أمية بن خَلَف، عن بنى جُمَح.

ولما جاءوا إلى دار الندوة حسب الميعاد، اعترضهم إبليس فى هيئة شيخ جليل، عليه بَتٌّ له[1]، ووقف على الباب، فقالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد سمع بالذى اتعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى ألا يعدمكم منه رأيًا ونصحًا. قالوا: أجل، فادخل، فدخل معهم.

النقاش البرلمانى والإجماع على قرار غاشم بقتل النبى ﷺ:

وبعد أن تكامل الاجتماع بدأ عرض الاقتراحات والحلول، ودار النقاش طويلًا. قال أبو الأسود: نخرجه من بين أظهرنا وننفيه من بلادنا، ولا نبالى أين ذهب، ولا حيث وقع، فقد أصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت.

قال الشيخ النجدى: لا والله ما هذا لكم برأى، ألم تروا حسن حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حى من العرب، ثم يسير بهم إليكم - بعد أن يتابعوه - حتى يطأكم بهم فى بلادكم، ثم يفعل بكم ما أراد، دبروا فيه رأيًا غير هذا.

قال أبو البخترى: احبسوه فى الحديد وأغلقوا عليه بابًا، ثم تربصوا به ما أصاب أمثاله

(١) البَتُّ: الكساء الغليظ.

من الشعراء الذين كانوا قبله - زهيرًا والنابغة - ومن مضى منهم، من هذا الموت، حتى يصيبه ما أصابهم.

قال الشيخ النجدى: لا والله ما هذا لكم برأى، والله لئن حبستموه - كما تقولون - ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم، فينزعوه من أيديكم، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأى، فانظروا فى غيره.

وبعد أن رفض البرلمان هذين الاقتراحين، قدم إليه اقتراح آثم وافق عليه جميع أعضائه، تقدم به كبير مجرمى مكة أبو جهل بن هشام. قال أبو جهل: والله إن لى فيه رأيًا ما أراكم وقعتم عليه بعد. قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابًّا جليدًا نَسِيبا وَسِيطًا فينا، ثم نعطى كل فتى منهم سيفًا صارمًا، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعًا، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا، فرضوا منا بالعَقْل[١]، فعقلناه لهم.

قال الشيخ النجدى: القول ما قال الرجل، هذا الرأى الذى لا رأى غيره[٢].

ووافق برلمان مكة على هذا الاقتراح الآثم بالإجماع، ورجع النواب إلى بيوتهم وقد صمموا على تنفيذ هذا القرار فورًا.

(١) بالدِّية.

(٢) انظر: ابن هشام ١/ ٤٨٠-٤٨٢.

هجرة النبى ﷺ

بين تدبير قريش وتدبير الله سبحانه وتعالى:

من طبيعة مثل هذا الاجتماع السرية للغاية، وألا يبدو على السطح الظاهر أى حركة تخالف اليوميات، وتغاير العادات المستمرة، حتى لا يشم أحد رائحة التآمر والخطر، ولا يدور فى خلد أحد أن هناك غموضًا ينبئ عن الشر، وكان هذا مكرًا من قريش، ولكنهم ماكروا بذلك الله سبحانه وتعالى، فخيبهم من حيث لا يشعرون. فقد نزل جبريل عليه السلام إلى النبى ﷺ بوحى من ربه تبارك وتعالى فأخبره بمؤامرة قريش، وأن الله قد أذن له فى الخروج، وحدد له وقت الهجرة، وبين له خطة الرد على قريش فقال: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه[(١)].

وذهب النبى ﷺ فى الهاجرة – حين يستريح الناس فى بيوتهم – إلى أبى بكر رضي الله عنه ليبرم معه مراحل الهجرة، قالت عائشة رضي الله عنها: بينما نحن جلوس فى بيت أبى بكر فى نحر الظهيرة، قال قائل لأبى بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعًا، فى ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبى وأمى، والله ما جاء به فى هذه الساعة إلا أمر.

قالت: فجاء رسول الله ﷺ، فاستأذن،فأذن له فدخل، فقال النبى ﷺ لأبى بكر: «**أخرج مَنْ عندك**». فقال أبو بكر: إنما هم أهلك، بأبى أنت يا رسول الله. قال: «**فأنى قد أذن لى فى الخروج**»، فقال أبو بكر: الصحبة بأبى أنت يا رسول الله؟ قال رسول الله ﷺ: «**نعم**»[(٢)].

ثم أبرم معه خطة الهجرة، ورجع إلى بيته ينتظر مجىء الليل. وقد استمر فى أعماله اليومية حسب المعتاد حتى لم يشعر أحد بأنه يستعد للهجرة، أو لأى أمر آخر اتقاء مما قررته قريش.

تطويق منزل الرسول ﷺ:

أما أكابر مجرمى قريش فقضوا نهارهم فى الإعداد سرا لتنفيذ الخطة المرسومة التى

---

(١) ابن هشام ١/ ٤٨٢، وزاد المعاد ٢/ ٢.

(٢) صحيح البخارى: باب هجرة النبى وأصحابه ١/ ٥٥٣. وانظر للهجرة: ح (٤٧٦، ٢١٣٨، ٢٢٦٣، ٢٢٦٤، ٢٢٩٧، ٣٩٠٥، ٤٠٩٣، ٥٨٠٧، ٦٠٧٩) من صحيح البخارى.

أبرمها برلمان مكة (دار الندوة) صباحًا، واختير لذلك أحد عشر رئيسًا من هؤلاء الأكابر، وهم:

١- أبو جهل بن هشام.
٢- الحَكَم بن أبى العاص.
٣- عُقْبَة بن أبى مُعَيْط.
٤- النَّضْر بن الحارث.
٥- أُمية بن خَلَف.
٦- زَمْعَة بن الأسود.
٧- طُعَيْمة بن عَدِىّ.
٨ - أبو لهب.
٩- أُبَىّ بن خلف.
١٠- نُبَيْه بن الحجاج.
١١- أخوه مُنَبِّه بن الحجاج[١].

وكان من عادة رسول الله ﷺ أن ينام فى أوائل الليل بعد صلاة العشاء، ويخرج بعد نصف الليل إلى المسجد الحرام، يصلى فيه قيام الليل، فأمر عليًّا رضي الله عنه تلك الليلة أن يضطجع على فراشه، ويتسجى ببرده الحضرمى الأخضر، وأخبره أنه لا يصيبه مكروه.

فلما كانت عتمة من الليل وساد الهدوء، ونام عامة الناس، جاء المذكورون إلى بيته ﷺ سرًّا، واجتمعوا على بابه يرصدونه، وهم يظنونه نائمًا حتى إذا قام وخرج وثبوا عليه، ونفذوا ما قرروا فيه.

وكانوا على ثقة ويقين جازم من نجاح هذه المؤامرة الدنية، حتى وقف أبو جهل وقفة الزهو والخيلاء، وقال مخاطبًا لأصحابه المطوقين فى سخرية واستهزاء: إن محمدًا يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها[٢].

وقد كان ميعاد تنفيذ تلك المؤامرة بعد منتصف الليل فى وقت خروجه ﷺ من البيت،

(١) زاد المعاد ٢/ ٥٢.
(٢) ابن هشام ١/ ٤٨٢، ٤٨٣.

فباتوا متيقظين ينتظرون ساعة الصفر، ولكن الله غالب على أمره، بيده ملكوت السموات والأرض، يفعل ما يشاء، وهو يجير ولا يجار عليه، فقد فعل ما خاطب به الرسول ﷺ فيما بعد: [` a b c d e f g h i j k l m o p Z r q [الأنفال].

الرسول ﷺ يغادر بيته:

وقد فشلت قريش فى خطتهم فشلًا ذريعًا مع غاية التيقظ والتنبه؛ إذ خرج رسول الله ﷺ من البيت، واخترق صفوفهم، وأخذ حفنة من البطحاء فجعل يذره على رءوسهم، وقد أخذ الله أبصارهم عنه فلا يرونه، وهو يتلو: [i j k l m n o p q r s t u Z [يس]. فلم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، ومضى إلى بيت أبى بكر، فخرجا من خوخة فى دار أبى بكر ليلًا حتى لحقا بغار ثَوْر فى اتجاه اليمن[(١)].

وبقى المحاصرون ينتظرون حلول ساعة الصفر، وقبيل حلولها تجلت لهم الخيبة والفشل، فقد جاءهم رجل ممن لم يكن معهم، ورآهم ببابه فقال: ما تنتظرون؟ قالوا: محمدًا. قال: خبتم وخسرتم، قد والله مر بكم، وذر على رءوسكم التراب، وانطلق لحاجته، قالوا: والله ما أبصرناه، وقاموا ينفضون التراب عن رءوسهم.

ولكنهم تطلعوا من صير الباب فرأوا عليًّا، فقالوا: والله إن هذا لمحمد نائمًا، عليه برده، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا. وقام علىٌّ عن الفراش، فسقط فى أيديهم، وسألوه عن رسول الله ﷺ، فقال: لا علم لى به[(٢)].

من الدار إلى الغار:

غادر رسول الله ﷺ بيته فى ليلة ٢٧ من شهر صفر سنة ١٤ من النبوة، الموافق ١٢/ ١٣ سبتمبر سنة ٦٢٢م[(٣)]. وأتى إلى دار رفيقه - وأمنّ الناس عليه فى صحبته وماله

(١، ٢) ابن هشام ١/ ٤٨٣، وزاد المعاد ٢/ ٥٢.

(٣) رحمة للعالمين ١/ ٩٥. ويكون شهر صفر هذا من السنة الرابعة عشرة من النبوة إذا فرضنا بداية السنين من شهر محرم، وأما إذا بدأنا السنين من الشهر الذى أكرم الله فيه نبيه ﷺ بالنبوة، فيكون شهر صفر هذا من السنة الثالثة عشرة قطعًا. وعامة من يكتب فى السيرة ربما يختار هذا، وربما يختار ذاك، فكثيرًا ما يتخبط فى ترتيب الوقائع، ويقع فى أغلاط، ونظرًا إلى ذلك اخترنا بداية السنين من شهر محرم.

– أبى بكر ﷺ. ثم غادر منزل الأخير من باب خلفى؛ ليخرجا من مكة على عجل وقبل أن يطلع الفجر.

ولما كان النبى ﷺ يعلم أن قريشًا سَتَجِدُّ فى الطلب، وأن الطريق الذى ستتجه إليه الأنظار لأول وهلة هو طريق المدينة الرئيسى المتجه شمالًا، فسلك الطريق الذى يضاده تمامًا، وهو الطريق الواقع جنوب مكة، والمتجه نحو اليمن، سلك هذا الطريق نحو خمسة أميال حتى بلغ إلى جبل يعرف بجبل ثَوْر وهو جبل شامخ، وَعِر الطريق، صعب المرتقى، ذو أحجار كثيرة، فحفيت قدما رسول الله ﷺ، وقيل: بل كان يمشى فى الطريق على أطراف قدميه كى يخفى أثره فحفيت قدماه، وأيا ما كان فقد حمله أبو بكر حين بلغ إلى الجبل، وطفق يشتد به حتى انتهى به إلى غار فى قمة الجبل عرف فى التاريخ بغار ثور[١].

إذ هما فى الغار:

ولما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر: والله لا تدخله حتى أدخل قبلك، فإن كان فيه شىء أصابنى دونك، فدخل فكسحه، ووجد فى جانبه ثقبًا فشق إزاره وسدها به، وبقى منها اثنان فألقمهما رجليه، ثم قال لرسول الله ﷺ: ادخل، فدخل رسول الله ﷺ، ووضع رأسه فى حجره ونام، فلدغ أبو بكر فى رجله من الجحر، ولم يتحرك مخافة أن ينتبه رسول الله ﷺ، فسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ، فقال: «**ما لك يا أبا بكر؟**» قال: لدغت، فداك أبى وأمى، فتفل رسول الله ﷺ، فذهب ما يجده[٢].

وكَمُنَا فى الغار ثلاث ليال، ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد[٣]. وكان عبد الله ابن أبى بكر يبيت عندهما. قالت عائشة: وهو غلام شاب ثَقِف لَقِن، فيُدْلِج من عندهما بسَحَرٍ، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمرًا يكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، و [كان] يرعى عليهما عامر بن فُهَيْرَة مولى أبى بكر مِنْحَة من غنم، فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان فى رِسْل – وهو لبن مِنْحَتِهما ورَضِيفِهما – حتى يَنْعِق بها عامر بن فُهَيْرَة بغَلَس، يفعل ذلك فى كل ليلة من تلك الليالى الثلاث[٤]، وكان عامر بن فهيرة يتبع بغنمه أثر عبد الله بن أبى بكر بعد ذهابه إلى مكة

(١) مختصر السيرة للشيخ عبد الله، ص ١٦٧.

(٢) رواه رزين عن عمر بن الخطاب ﷺ وفيه: ثم انتفض عليه (أى رجع أثر السم حين موته) وكان سبب موته. انظر: مشكاة المصابيح، باب مناقب أبى بكر ٢/ ٥٥٦.

(٣) انظر: فتح البارى ٧/ ٣٣٦.

(٤) صحيح البخارى ١/ ٥٥٣، ٥٥٤.

ليُعَفِّى عليه[١].

أما قريش فقد جن جنونها حينما تأكد لديها إفلات رسول الله ﷺ صباح ليلة تنفيذ المؤامرة. فأول ما فعلوا بهذا الصدد أنهم ضربوا عليًّا، وسحبوه إلى الكعبة، وحبسوه ساعة، علهم يظفرون بخبرهما[٢].

ولما لم يحصلوا من عليّ على جدوى جاءوا إلى بيت أبى بكر وقرعوا بابه، فخرجت إليهم أسماء بنت أبى بكر، فقالوا لها: أين أبوك؟ قالت: لا أدرى والله أين أبى؟ فرفع أبو جهل يده - وكان فاحشًا خبيثًا - فلطم خدها لطمة طرح منها قرطها[٣].

وقررت قريش فى جلسة طارئة مستعجلة استخدام جميع الوسائل التى يمكن بها القبض على الرجلين، فوضعت جميع الطرق النافذة من مكة (فى جميع الجهات) تحت المراقبة المسلحة الشديدة، كما قررت إعطاء مكافأة ضخمة قدرها مائة ناقة بدل كل واحد منهما لمن يعيدهما إلى قريش حيين أو ميتين، كائنًا من كان[٤].

وحينئذ جدت الفرسان والمشاة وقصاص الأثر فى الطلب، وانتشروا فى الجبال والوديان، والوهاد والهضاب، لكن من دون جدوى وبغير عائدة.

وقد وصل المطاردون إلى باب الغار، ولكن الله غالب على أمره، روى البخارى عن أنس عن أبى بكر قال: كنت مع النبى ﷺ فى الغار، فرفعت رأسى فإذا أنا بأقدام القوم، فقلت: يا نبى الله، لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا. قال: «**اسكت يا أبا بكر، اثنان، الله ثالثهما**»، وفى لفظ: «**ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما**»[٥].

وقد كانت معجزة أكرم الله بها نبيه ﷺ، فقد رجع المطاردون حين لم يبق بينه وبينهم إلا خطوات معدودة.

---

(١) ابن هشام ١/ ٤٨٦.
(٢) تاريخ الطبرى ٢/ ٣٧٤.
(٣) ابن هشام ١/ ٤٨٧.
(٤) انظر: صحيح البخارى ١/ ٥٥٤.
(٥) صحيح البخارى ١/ ٥١٦، ٥٥٨، ونحوه عند أحمد ١/ ٤ ولفظه: قلت للنبى ﷺ وهو فى الغار- وقال مرة: ونحن فى الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا، فقال: «**يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما**» ولم يكن = فزع أبى بكر مخافة على نفسه، بل سببه الوحيد ما روى أن أبا بكر لما رأى القافة اشتد حزنه على رسول الله ﷺ وقال: إن قتلتُ فإنما أنا رجل واحد، وإن قتلتَ أنت هلكت الأمة، فعندها قال له رسول الله ﷺ:] ¨ © ª » ¬ Z. انظر: مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى، ص ١٦٨.

فى الطريق إلى المدينة:

وحين خمدت نار الطلب، وتوقفت أعمال دوريات التفتيش، وهدأت ثائرات قريش بعد استمرار المطاردة الحثيثة ثلاثة أيام بدون جدوى، تهيأ رسول الله ﷺ وصاحبه للخروج إلى المدينة.

وكانا قد استأجرا عبد الله بن أُرَيْقِط الليثى، وكان هاديًا خِرِّيتًا - ماهرًا بالطريق - وكان على دين كفار قريش، وأمناه على ذلك، وسلما إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثَوْر بعد ثلاث ليال براحلتيهما، فلما كانت ليلة الاثنين - غرة ربيع الأول سنة ١هـ / ١٦ سبتمبر سنة ٦٢٢م - جاءهما عبد الله ابن أريقط بالراحلتين، وكان قد قال أبو بكر للنبى ﷺ عند مشاورته فى البيت: بأبى أنت يا رسول الله، خذ إحدى راحلتى هاتين، وقرب إليه أفضلهما، فقال رسول الله ﷺ بالثمن. وأتتهما أسماء بنت أبى بكر رضي الله عنها بسُفْرَتِهما، ونسيت أن تجعل لها عِصَامًا، فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة، فإذا ليس لها عصام، فشقت نطاقها باثنين، فعلقت السفرة بواحد، وانتطقت بالآخر فسميت: ذات النطاقين[(١)].

ثم ارتحل رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه، وارتحل معهما عامر بن فُهَيْرة، وأخذ بهم الدليل - عبد الله بن أريقط - على طريق السواحل.

وأول ما سلك بهم بعد الخروج من الغار أنه أمعن فى اتجاه الجنوب نحو اليمن، ثم اتجه غربًا نحو الساحل، حتى إذا وصل إلى طريق لم يألفه الناس، اتجه شمالًا على مقربة من شاطئ البحر الأحمر، وسلك طريقًا لم يكن يسلكه أحد إلا نادرًا.

وقد ذكر ابن إسحاق المواضع التى مر بها رسول الله ﷺ فى هذا الطريق، قال: لما خرج بهما الدليل سلك بهما أسفل مكة، ثم مضى بهما على الساحل حتى عارض الطريق أسفل من عُسْفَان، ثم سلك بهما على أسفل أَمَج، ثم استجاز بهما حتى عارض بهما الطريق بعد أن أجاز قُدَيْدًا، ثم أجاز بهما من مكانه ذلك فسلك بهما الْخَرَّار، ثم سلك بهما ثَنِيَّة الْمَرَّة، ثم سلك بهما لِقْفًا، ثم أجاز بهما مَدْلَجَة لِقْف، ثم استبطن بهما مَدْلَجَة مِجَاج، ثم سلك بهما مَرْجِح مِجَاح، ثم تبطن بهما مَرْجِح من ذى الغُضْوَيْن، ثم بطن ذى كَشْر، ثم أخذ بهما على الْجَدَاجِد، ثم على الأجرد، ثم سلك بهما ذا سلم من بطن أعدا مَدْلَجَة تِعْهِنَ، ثم على العَبَابيد، ثم أجاز بهما الفَاجَة، ثم هبط بهما الْعَرْج، ثم سلك بهما ثنية العَائِر - عن يمين رَكُوبة - حتى هبط بهما

(١) صحيح البخارى ١/ ٥٥٣، ٥٥٥، وابن هشام ١/ ٤٨٦.

بطن رِئْم، ثم قدم بهما على قُباء[١].

وهاك بعض ما وقع فى الطريق:

١ـ روى البخارى عن أبى بكر الصديق رضي الله عنه قال: أسرينا ليلتنا ومن الغد حتى قام قائم الظهيرة وخلا الطريق، لا يمر فيه أحد، فرفعت لنا صخرة طويلة، لها ظل لم تأت عليها الشمس، فنزلنا عنده، وسويت للنبى ﷺ مكانًا بيدى، ينام عليه، وبسطت عليه فروة، وقلت: نم يا رسول الله، وأنا أنفض لك ما حولك، فنام، وخرجت أنفض ما حوله، فإذا أنا براع مقبل بغنمه إلى الصخرة، يريد منها مثل الذى أردنا، فقلت له: لمن أنت يا غلام؟ فقال: لرجل من أهل المدينة أو مكة[٢]. قلت: أفى غنمك لبن؟ قال: نعم. قلت: أفتحلب؟ قال: نعم. فأخذ شاة، فقلت: انفض الضرع من التراب والشعر والقَذَى، فحلب فى قعب كُثْبة من لبن، ومعى إداوة حملتها للنبى ﷺ، يرتوى منها، يشرب ويتوضأ، فأتيت النبى ﷺ فكرهت أن أوقظه، فوافقته حين استيقظ، فصببت من الماء على اللبن حتى برد أسفله، فقلت: اشرب يا رسول الله، فشرب حتى رضيت، ثم قال: «**ألم يأن للرحيل؟**» قلت: بلى، قال: فارتحلنا[٣].

٢ـ وكان من دأب أبى بكر رضي الله عنه أنه كان ردفًا للنبى ﷺ، وكان شيخًا يعرف، ونبى الله ﷺ شاب لا يعرف، فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: من هذا الرجل الذى بين يديك؟ فيقول: هذا الرجل يهدينى الطريق، فيحسب الحاسب أنه يعنى به الطريق، وإنما يعنى سبيل الخير[٤].

٣ـ وفى اليوم الثانى أو الثالث مر بخيمتى أم مَعْبَد الخزاعية، وكان موقعها بالمُشَلَّل من ناحية قُدَيْد على بعد نحو ١٣٠ كيلو مترًا من مكة، وكانت أم معبد امرأة برزة جلدة تحتبى بفناء الخيمة، ثم تطعم وتسقى من مر بها، فسألاها: هل عندها شيء؟ فقالت: والله لو كان عندنا شىء ما أعوزكم، القِرَى والشاء عازب، وكانت سَنَةٌ شَهْباء.

فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة فى كسر الخيمة، فقال: «**ما هذه الشاة يا أم معبد؟**» قالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم، فقال: «**هل بها من لبن؟**» قالت: هى أجهد من ذلك. فقال: «**أتأذنين لى أن أحلبها؟**» قالت: نعم بأبى وأمى إن رأيت بها حلبًا فاحلبها. فمسح

(١) ابن هشام ١/ ٤٩١، ٤٩٢.
(٢) وفى رواية: لرجل من قريش.
(٣) صحيح البخارى ١/ ٥١٠.
(٤) روى ذلك البخارى عن أنس ١/ ٥٥٦.

رسول الله ﷺ بيده ضرعها، وسمى الله ودعا، فتَفَاجَّتْ عليه ودَرَّتْ، فدعا بإناء لها يَرْبِض[(١)] الرهط، فحلب فيه حتى علته الرغوة، فسقاها، فشربت حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا، ثم شرب، وحلب فيه ثانيًا، حتى ملأ الإناء، ثم غادره عندها فارتحلوا.

فما لبثت أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزا عجافا يتساوكن هزلًا، فلما رأى اللبن عجب، فقال: من أين لك هذا؟ والشاة عازب، ولا حلوبة فى البيت؟ فقالت: لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت، ومن حاله كذا وكذا، قال: إنى والله أراه صاحب قريش الذى تطلبه، صِفِيه لى يا أم معبد، فوصفته بصفاته الكريمة وصفًا بديعًا كأن السامع ينظر إليه وهو أمامه - وسننقله فى بيان صفاته ﷺ فى أواخر الكتاب - فقال أبو معبد: والله هذا صاحب قريش الذى ذكروا من أمره ما ذكروا، لقد هممت أن أصحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلًا. وأصبح صوت بمكة عاليًا يسمعونه ولا يرون القائل:

جزى الله رب العرش خير جزائه ... رفيقين حَـلَّا خيمتى أم مَعْبَدِ
هـمـا نـزلا بـالـبِـرِّ وارتـحـلا به ... وأفـلـح مـن أمسى رفيق محمد
فيا لقُصَىّ ما زَوَى الله عنكم ... به من فعال لا يُـحَـاذى وسُـؤْدُد
لِيَهْـنِ بنى كعـب مـكان فَتَاتِهـم ... ومقعدُهـا للمؤمنيـن بَمْرصَـد
سَلُوا أختكم عن شاتها وإنائها ... فإنكم إن تسألوا الـشـاة تَشْهَد

قالت أسماء: ما درينا أين توجه رسول الله ﷺ، إذ أقبل رجل من الجن من أسفل مكة فأنشد هذه الأبيات، والناس يتبعونه ويسمعون صوته ولا يرونه حتى خرج من أعلاها. قالت: فلما سمعنا قوله عرفنا حيث توجه رسول الله ﷺ، وأن وجهه إلى المدينة[(٢)].

٤ـ وتبعهما فى الطريق سُرَاقة بن مالك. قال سراقة:

بينما أنا جالس فى مجلس من مجالس قومى بنى مُدْلج، أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سراقة، إنى رأيت آنفًا أسْوِدَة بالساحل، أراها محمدًا وأصحابه. قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلانًا وفلانًا انطلقوا بأعيننا، ثم لبثت فى المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت، فأمرت جاريتى أن تخرج

(١) يسقى.

(٢) زاد المعاد ٢/ ٥٣، ٥٤، وأخرجه الحاكم فى المستدرك ٣/ ٩، ١٠، وصححه، ووافقه الذهبى، ورواه البغوى فى شرح السنة ١٣/ ٢٦٤.

فرسى، وهى من وراء أَكَمَة، فتحبسها عَلَىَّ، وأخذت رمحى، فخرجت به من ظهر البيت، فخَطَطْتُ بزُجِّهِ[١] الأرض، وخَفَضْتُ عاليه، حتى أتيت فرسى فركبتها، فرَفَعْتُها تُقَرِّب بى حتى دنوت منهم، فعَثَرَتْ بى فرسى فخررت عنها، فقمت، فأهويت يدى إلى كنانتى، فاستخرجت منها الأزلام، فاستقسمت بها، أَضُرُّهُمْ أم لا؟ فخرج الذى أكره، فركبت فرسى - وعصيت الأزلام - تُقَرِّبُ بى، حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ - وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات - سَاخَتْ يدا فرسى فى الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها، ثم زجرتها فنهضت، فلم تَكَدْ تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها غبار ساطع فى السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام، فخرج الذى أكره، فناديتهم بالأمان، فوقفوا، فركبت فرسى حتى جئتهم، ووقع فى نفسى حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمْرُ رسول الله ﷺ، فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يَرْزَآنى، ولم يسألانى إلا أن قال: «أَخْفِ عنا»، فسألته أن يكتب لى كتاب أمْنٍ، فأمر عامر بن فُهَيْرة، فكتب لى فى رقعة من أدم، ثم مضى رسول الله ﷺ[٢].

وفى رواية عن أبى بكر قال: ارتحلنا والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا منهم أحد غير سراقة ابن مالك بن جُعْشُم، على فرس له، فقلت: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله، فقال:] ¨ © a » ¬ Z [التوبة: ٤٠][٣].

ورجع سراقة فوجد الناس فى الطلب فجعل يقول: قد استبرأت لكم الخبر، قد كفيتم ما ها هنا. وكان أول النهار جاهدًا عليهما، وآخره حارسًا لهما[٤].

٥ - وفى الطريق لقى النبى ﷺ بُرَيْدَة بن الحُصَيْب الأسلمى ومعه نحو ثمانين بيتًا، فأسلم وأسلموا، وصلى رسول الله ﷺ العشاء الآخرة فصلوا خلفه، وأقام بريدة بأرض قومه حتى قدم على رسول الله ﷺ بعد أُحُد.

وعن عبد الله بن بريدة أن النبى ﷺ كان يتفاءل ولا يتطير، فركب بريدة فى سبعين راكبًا من أهل بيته من بنى سهم، فلقى النبى ﷺ، فقال له: «ممن أنت؟» قال: من أسلم، فقال:

---

(١) خططت: أمسكت بأعلاه وجعلت أسفله فى الأرض، والزُّج: حديدة بأسفل الرمح.

(٢) صحيح البخارى ١/ ٥٥٤- وكان مقر بنى مدلج بالقرب من رابغ، وتبعهما سراقة حينما كانا مصعدين من قديد- زاد المعاد ٢/ ٥٣- فالأغلب أنه تبعهما فى اليوم الثالث من رحيلهما.

(٣) صحيح البخارى ١/ ٥١٦.

(٤) زاد المعاد ٢/ ٥٣.

لأبى بكر: سلمنا، ثم قال: «مِنْ بنى مَنْ؟» قال: من بنى سهم. قال: «خرج سهمك»[١].

٦ـ ومر رسول الله ﷺ بأبى أوْس تميم بن حَجَر أو بأبى تميم أوس بن حجر الأسلمى، بقحداوات بين الجُحْفَة وهَرْشَى - بالعَرْج - وكان قد أبطأ عليه بعض ظهره، فكان هو وأبو بكر على جمل واحد، فحمله أوس على فحل من إبله، وبعث معهما غلامًا له اسمه مسعود، وقال: اسلك بهما حيث تعلم من محارم الطريق ولا تفارقهما، فسلك بهما الطريق حتى أدخلهما المدينة، ثم رد رسول الله ﷺ مسعودًا إلى سيده، وأمره أن يأمر أوسًا أن يسم إبله فى أعناقها قيد الفرس، وهو حلقتان، ومد بينهما مدًّا، فهى سمتهم. ولما أتى المشركون يوم أحد أرسل أوس غلامه مسعود بن هُنَيْدَة من العَرْج على قدميه إلى رسول الله ﷺ يخبره بهم. ذكره ابن مَاكُولا عن الطبرى، وقد أسلم بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة، وكان يسكن العرج[٢].

٧ـ وفى الطريق - فى بطن رِئْم - لقى رسول الله ﷺ الزبير، وهو فى ركب من المسلمين، كانوا تجارًا قافلين من الشام، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثيابًا بياضًا[٣].

النزول بقباء:

وفى يوم الاثنين ٨ ربيع الأول سنة ١٤ من النبوة - وهى السنة الأولى من الهجرة - الموافق ٢٣ سبتمبر سنة ٦٢٢م نزل رسول الله ﷺ بقباء[٤].

قال عروة بن الزبير: سمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله ﷺ من مكة، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحَرَّة، فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يومًا بعد ما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم أَوْفى رجل من يهود على أُطُم من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مُبَيَّضِين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودى أن قال بأعلى صوته: يا معاشر العرب، هذا جدكم الذى تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح[٥]. وتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة.

---

(١) أسد الغابة ١/ ٢٠٩.

(٢) أسد الغابة ١/ ١٧٣، وابن هشام ١/ ٤٩١.

(٣) روى ذلك البخارى عن عروة بن الزبير ١/ ٥٥٤.

(٤) رحمة للعالمين ١/ ١٠٢. وفى هذا اليوم تم عمره ﷺ ثلاثة وخمسين عاما كاملًا لا وكس ولا شطط، وتم على نبوته ثلاثة عشر عاما كاملًا عند من يقول: إنه أكرم بالنبوة فى ٩ ربيع الأول سنة ٤١ من عام الفيل، وأما من يقول: إنه أكرم بالنبوة فى رمضان سنة ٤١ من عام الفيل فعنده يتم على نبوته- فى ذلك اليوم- اثنا عشر عاما وخمسة أشهر و ١٨ يومًا أو ٢٢ يومًا.

(٥) صحيح البخارى ١/ ٥٥٥. والأطم: الحصن. و«مبيضين»: عليهم ثياب بيض.

قال ابن القيم: وسُمِعت الوَجْبَةُ[(١)] والتكبير فى بنى عمرو بن عوف، وكبر المسلمون فرحًا بقدومه، وخرجوا للقائه، فتلقوه وحيوه بتحية النبوة، فأحدقوا به مطيفين حوله، والسكينة تغشاه، والوحى ينزل عليه: [k l m n o p q r s t Z u v w] [التحريم][(٢)].

قال عروة بن الزبير: فتلقوا رسول الله ﷺ، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عمرو ابن عوف، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول. فقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله ﷺ صامتًا، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيى - وفى نسخة: يجىء - أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك[(٣)].

وكانت المدينة كلها قد زحفت للاستقبال، وكان يومًا مشهودًا لم تشهد المدينة مثله فى تاريخها، وقد رأى اليهود صدق بشارة حَبْقُوق النبى: إن الله جاء من التيمان، والقدوس من جبال فاران[(٤)].

ونزل رسول الله ﷺ بقباء على كلثوم بن الهدم، وقيل: بل على سعد بن خَيْثَمَة، والأول أثبت.

ومكث على بن أبى طالب رضي الله عنه بمكة ثلاثًا حتى أدى عن رسول الله ﷺ الودائع التى كانت عنده للناس، ثم هاجر ماشيًا على قدميه حتى لحقهما بقباء، ونزل على كلثوم ابن الهَدْم[(٥)].

وأقام رسول الله ﷺ بقباء أربعة أيام: الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس[(٦)]. وأسس مسجد قباء وصلى فيه، وهو أول مسجد أسس على التقوى بعد النبوة، فلما كان

---

(١) صوت الشىء الساقط.
(٢) زاد المعاد ٢/ ٥٤.
(٣) صحيح البخارى، ١/ ٥٥٥.
(٤) صحيفة حبقوق (٣:٣).
(٥) ابن هشام ١/ ٤٩٣، وزاد المعاد ٢/ ٥٤.
(٦) هذا ما رواه ابن إسحاق (ابن هشام ١/ ٤٩٤)، وفى صحيح البخارى أنه أقام بقباء أربعا وعشرين ليلة (١/ ٦١)، وبضع عشرة ليلة (١/ ٥٥٥)، وأربع عشرة ليلة (١/ ٥٦٠)، وهذا الأخير هو الذى اختاره ابن القيم، وقد صرح هو نفسه أن نزوله بقباء كان يوم الاثنين وخروجه يوم الجمعة (زاد المعاد ٢/ ٥٤، ٥٥) ومعلوم أن فصل ما بينهما لا يزيد على عشرة أيام سوى يومى الدخول والخروج، ومعهما لا يزيد على اثنى عشر يوما إذا كانا من أسبوعين.

اليوم الخامس - يوم الجمعة - ركب بأمر الله له، وأبو بكر ردفه، وأرسل إلى بنى النجار - أخواله - فجاءوا متقلدين سيوفهم، فسار نحو المدينة وهم حوله[(١)]، وأدركته الجمعة فى بنى سالم بن عوف، فجمع بهم فى المسجد الذى فى بطن الوادى، وكانوا مائة رجل[(٢)].

الدخول فى المدينة:

ثم سار النبى ﷺ بعد الجمعة حتى دخل المدينة - ومن ذلك اليوم سميت بلدة يثرب بمدينة الرسول ﷺ، ويعبر عنها بالمدينة مختصرًا - وكان يومًا مشهودًا أغر، فقد ارتجت البيوت والسكك بأصوات الحمد والتسبيح، وتغنت بنات الأنصار بغاية الفرح والسرور[(٣)]:

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع

والأنصار وإن لم يكونوا أصحاب ثروات طائلة، إلا أن كل واحد منهم كان يتمنى أن ينزل الرسول ﷺ عليه، فكان لا يمر بدار من دور الأنصار إلا أخذوا خطام راحلته: هلم إلى العدد والعدة والسلاح والمنعة، فكان يقول لهم: «**خلوا سبيلها فإنها مأمورة**»، فلم تزل سائرة به حتى وصلت إلى موضع المسجد النبوى اليوم فبركت، ولم ينزل عنها حتى نهضت وسارت قليلًا، ثم التفتت ورجعت فبركت فى موضعها الأول، فنزل عنها، وذلك فى بنى النجار - أخواله ﷺ - وكان من توفيق الله لها، فإنه أحب أن ينزل على أخواله، يكرمهم بذلك، فجعل الناس يكلمون رسول الله ﷺ فى النزول عليهم، وبادر أبو أيوب الأنصارى إلى رحله، فأدخله بيته،فجعل رسول الله ﷺ يقول: «**المرء مع رحله**»، وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بزمام راحلته، فكانت عنده[(٤)].

---

(١) صحيح البخارى ١/ ٥٥٥، ٥٦٠.

(٢) ابن هشام ١/ ٤٩٤، وزاد المعاد ٢/ ٥٥.

(٣) رجح ابن القيم أن هذه الأبيات أنشدت عند مرجعه ﷺ من تبوك، ووهم من يقول: إنما كان ذلك عند مقدمه المدينة (زاد المعاد ٣/ ١٠)، لكن ابن القيم لم يأت على هذا التوهيم بدليل يشفى، وقد استنبط العلامة المنصورفورى من إشارات وتصريحات صحف أنبياء بنى إسرائيل أن هذا حصل عند مقدمه ﷺ المدينة، وهو استنباط قوى، ولا يستبعد أن تكون هذه الأبيات أنشدت فى الموقعين.

(٤) ابن هشام ١/ ٤٩٤- ٤٩٦، وزاد المعاد ٢/ ٥٥.

وفى رواية أنس عند البخارى، قال نبى الله ﷺ: **«أى بيوت أهلنا أقرب؟»** فقال أبو أيوب: أنا يا رسول الله، هذه دارى، وهذا بابى. قال: **«فانطلق فهيئ لنا مقيلًا»**، قال: قوما على بركة الله[(١)].

وبعد أيام وصلت إليه زوجته سَوْدَة، وبنتاه فاطمة وأم كلثوم، وأسامة بن زيد، وأم أيمن، وخرج معهم عبد الله بن أبى بكر بعيال أبى بكر، ومنهم عائشة، وبقيت زينب عند أبى العاص، لم يمكنها من الخروج حتى هاجرت بعد بدر[(٢)].

قالت عائشة: وقدمنا المدينة وهى أوبأ أرض الله، فكان بُطْحَان يجرى نَجْلًا، أى: ماءً آجِنًا.

وقالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر وبلال، فدخلت عليهما فقلت: يا أبه كيف تجدك؟ ويا بلال كيف تجدك؟ قالت: فكان أبو بكر إذا أخذته الحُمَّى يقول:

كل امرئ مُصَبَّحٌ فى أهله ... والموت أدنى من شِرَاك نَعْلِه

وكان بلال إذا أقلع عنه يرفع عقيرته ويقول:

ألا ليت شِعْرِى هل أبيتَنَّ ليلة ... بوَادٍ وحولى إذْخِرٌ وجَلِيلُ

وهل أردْن يومًا مياه مِجَنَّة ... وهل يَبْدُوَنْ لى شامة وطَفِيلُ[(٣)]

قالت عائشة: فجئت رسول الله ﷺ، فأخبرته، فقال: **«اللهم العن شيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، وأمية بن خلف، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء»**. ثم قال رسول الله ﷺ: **«اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وصححها، وبارك فى صاعها ومدها، وانقل حماها فاجعلها بالجُحْفَة»**[(٤)].

وقد استجاب الله دعاءه ﷺ، فأرى فى المنام أن امرأة سوداء ثائرة الرأس خرجت من المدينة حتى نزلت بالمَهْيَعَة، وهى الجحفة. وكان ذلك عبارة عن نقل وباء المدينة إلى الجحفة، وبذلك استراح المهاجرون عما كانوا يعانونه من شدة مناخ المدينة.

إلى هنا انتهى بيان قسم من حياته ﷺ بعد النبوة، وهو العهد المكى. وفيما يلى نقدم بالإيجاز عهده المدنى ﷺ. وبالله التوفيق.

---

(١) صحيح البخارى ١/ ٥٥٦.
(٢) زاد المعاد ٢/ ٥٥.
(٣) شامة وطفيل: جبلان.
(٤) صحيح البخارى مع الفتح ٤/ ١١٩، ح (١٨٨٩)، وأيضًا (٣٩٢٦، ٥٦٥٤، ٥٦٧٧، ٦٣٧٢).